بشرى الهلالي

المواطنة 247

بشرى الهلالي

المواطنة 247

eKutub Publishing House
2026London

Citizin 247
By: Bushra Al-Helali
All Rights Reserved to the author ©
Published by eKutub
All yields of sales are reserved to the author
ISBN: **9781780588490**
Second Edition
London 2026

** * **
الطبعة الثانية،
لندن، 2026

المواطنة 247

المؤلفة: **بشرى الهلالي**
الناشر: eKutub Publishing House
©جميع الحقوق محفوظة للمؤلفة
لا تجوز إعادة طباعة أي جزء من هذا الكتاب إلكترونيا أو على ورق. كما لا يجوز الاقتباس من دون الإشارة الى المصدر.
أي محاولة للنسخ أو إعادة النشر تعرض صاحبها الى المسؤولية القانونية.
إذا عثرت على نسخة عبر أي وسيلة اخرى غير موقع الناشر (إي- كتب) أو غوغل بوكس أو أمازون، نرجو إشعارنا بوجود نسخة غير مشروعة، وذلك بالكتابة إلينا:
ekutub. info@gmail.com
يمكنك الكتابة الى المؤلفة على العنوان التالي:
bushrahilaly@googlemail.com

صدرت الطبعة الأولى من هذه الرواية في العام 2023
عن دار "تأويل" في بغداد

المواطنة 247

بشرى الهلالي

"إي-كتب"

أنْ تحملَ رأسَك فوقَ كتفيكَ، لَا يَعني أنّك تمتلكُه!

الفهرس

شهادات نقدية 7

1 10

2 14

3 18

4 23

5 29

6 35

7 39

8 53

9 57

10 62

11 66

12 72

13 76

14 83

15 86

16 92

17 100

18 107
19 109
20 117
21 120
22 124
23 128
24 131
25 136
26 139
27 143
28 150
29 155
30 160
رسالة أخيرة 165

شهادات نقدية

في زمن فوضى المعنى وتشظّيه، تبرز بشرى الهلالي بوصفها واحدةً من أهم سدنة الدلالة. في الشعر، تترك وخزات مجموعتها الشعرية "لن تشفى مني" أثرها الساطع والدال، وفي السرد، تقدّم "المواطنة 247"إنموذجًا فنيًا يتتبّع انكسارات المعنى عبر "سيرك" وجودي نُحِت بمهارة؛ رؤوسٌ مقطوعة، ووقتٌ مُصادَر، وبرمجةٌ قاسية تُشرعنها سلطاتٌ مستبدة تُقصي المشاعر وتختزل الإنسان في رأسٍ يُدار. سردياتٌ لا واقعية في ظاهرها، لكنها الأصدق في تفسير واقعٍ خان منطقه. بنصوصٍ مشفّرة ومتعددة الدلالات، تتقدّم بشرى الهلالي بثبات على أرض السرد، وصولًا إلى كتابةٍ تستحق الاحتفاء.

جمال جاسم أمين

عبّرت رواية "المواطنة 247" للكاتبة الروائية بشرى الهلالي، بتفاصيلها، عن الواقع المعلن والخفي، وكذلك عن ملامح الانعتاق، وذلك على مستويين متجاورين في الشكل والمضمون. فهي ليست نقدًا للواقع واحتجاجًا عليه فحسب، بل كيانٌ فنيٌّ يفسّر الواقع ولا ينقله كما هو، مستعيناً بالتقنيات السردية بوصفها نوافذ إضافية لتنشيط التفكير الفني بكل تجلياته.

د. جاسم محمد جسام

على الرغم من كونها الرواية الأولى لبشرى الهلالي، فإنها تأتي مشبعة بالاحتراف ووعي التجربة، ببناءٍ سردي قريب من فنّ السيناريو، يبتعد عن

التقليد والترهّل، ويؤكّد مشروعًا جماليًا واضحًا وعزمًا على تثبيت حضورها بين الروائيات.

د. عبد المطلب محمود

رواية "المواطنة 247"لبشرى الهلالي عمل مكتوب بوعيٍ جمالي وتقني عالٍ، يرصد عبر تداخلٍ زمني ذكيّ رعبَ زمنين وما خلّفاه من مصادرةٍ للرؤوس وتحكّمٍ صارم بالمصائر. غرائبيتها ليست هروبًا من الواقع، بل أداة لفضحه وكشف آلياته. شخصياتها مسحوقة بالخوف، تتشبّث بحبٍّ ناقص وخاسر، في سردٍ حميم وموجع يمتلك نَفَسًا طويلًا وقدرة لافتة على تتبّع المصائر. رواية تستعيد الماضي، وتقرأ الحاضر بحدسٍ وخبرة، وتؤكد حضور كاتبة تمتلك مشروعًا سرديًا واضحًا.

كاظم نصار

تميّزت رواية "المواطنة 247" بقدرتها على رصد عددٍ من قضايا المشهد العراقي خلال الفترة الممتدة من منتصف تسعينيات القرن الماضي حتى حرب الخليج عام 2003، فجاءت تعبيرًا عن واقعٍ مشوَّه ومزيَّف أفرز أمراضًا متعددة، انسحقت فيه نفسية المواطن العراقي حتى غدت مشوَّهة، تعاني موتًا سريريًا، فضلًا عن مصادرة كل ما هو إيجابي، في سياقٍ مثقل بالحروب والفقر والتخلّف.

د. أمل سلمان

شُيّد البناء التعالقي لـ رواية "المواطنة 247" نصًّا روائيًّا، على أساسين متينين: أوّلهما "السارد" بأنواعه الثلاثة: الخارجي ـ الداخلي ـ الضمني، وثانيهما "المسرود" بمكوّناته الأربعة: الحدث ـ الشخصية ـ الزمن ـ المكان، معًا، جامعين لـ(السرد): شعريّة تقنيّة "بويطيقيّة" + علاميّة دلاليّة "سيميائيّة"، متناسقتين ومتساوقيتين، وهذا يُحسب لـ"بشرى الهلالي."

بشير حاجم

1

تسمّرت أجسادهم الخمسة باتجاه الساعة العتيقة المثبتة على الحائط.

كُلٌّ بلحم وعظم تكدّست أربع منها على أريكة: أب وأم وصبي ذو أحد عشر عاما وطفلة ذات سبعة أعوام بينما تكوّرت فتاة ذات أربعة عشر عاما في كرسي منفصل.

تك... تك... تك...

تململت الأم في جلستها، تلمّست رقبتها، موضع الرأس، اصطدمت أناملها المتخشبة بملمس سلسلة ذهبية اعتادت وجودها منذ سنوات ولم تفكر بخلعها حتى في مجلس عزاء أبيها حيث كانت تخفيها تحت وشاحها الأسود خشية أن تراها النسوة المتعطشة عيونهنّ لالتقاط ما يصلح مادة للنميمة.

دون أن تدير كتفها نحو الأب، أصدرت صوتا أقرب إلى الغرغرة منه إلى الكلام: كم مرة طالبتك بأن تتخلص من هذه الخردة التي ما عدت أطيق شيخوخة دقاتها؟!

لم يُبد حراكا كأنما لم يسمع ما قالته، أو كأنه اعتاد سماع هذه الجملة كل يوم، بل كان ممتنّا لأنها توقفت عند هذا الحد، ففي أحيان كثيرة كانت تطيل إزعاجه بغرغرتها وهي تحاول التقاط الحروف لتشكّل جُملا متداخلة لانتقاد ساعة الحائط.

لكنه أخطأ هذه المرة، فلم يكن صمتها إلّا توقّفا لتجميع قدر أكبر من الكلمات التي خرجت من فمها كقافلة إبل أرهقتها شمس الصحراء: لم يعد أحد يستعمل هذا النوع من الساعات، صندوقها الخشبي يحتلّ ثلاثة أرباع المتر من الحائط،

وعصفورها الأحمق يختبئ كجندي جبان يُخرج لسانه ببلاهة ساخرا من أعدائه، ليُصدّع رؤوسنا بزقزقة صدئة.

مال بكتفه قليلا إلى الأمام، ندّت عنه حشرجة، لكن حباله الصوتية لم تسعفه، فلم يجازف يوماً بتدريبها خارج أوقات البرمجة.

اعترضت الطفلة التي أخذت تنزلق بجسدها أسفل مكانها على الكنبة حتى استقرّت جلوسا على الأرضية: دعيها، أنا أنتظر خروج العصفور لأعرف أن الساعة حانت لاسترداد رؤوسنا!

في تلك الأيام، التي تبدو إليه اليوم أبعد من غيمة، كان الأب، قبل أن يصبح أبا، أيضا يتسمّر أمامها بانتظار أن يطلّ عصفورها الأصفر. هذه الخردة الخشبية، التي تُصدّع رأس زوجته الآن، كانت في شبابها واحدة من قطع أثيرة تدمغ أيّ بيت ببصمة الرخاء. فهي أولى تلكم القطع الأثيرة التي اقتناها أبوه حين هاجر إلى العاصمة مع زوجته وطفله، في ستينيات القرن الماضي، لكي يطارد حلمه الأخضر بإكمال الجامعة ثم الثراء! حينها كان الأب في الثالثة من عمره، لم تكن ذاكرته قد نضجت بشكل كاف لتحبل بذكريات عن تلك القرية، مسقط رأسه ورأس أبيه، والتي لم يرها في حياته إلّا كبقعة منزوية أسفل خريطة البلد بعد أن تعلّمَ درس الجغرافيا.

في الثالثة من عمره؟ في الخامسة؟ هل بإمكانه أن يكون أكثر تحديدا وقد غاب رأسه؟

ربما استطاع تهريب هذه اللقطات من ذاكرته البعيدة. سيحاول غربلة سنواته اللاحقة عسى أن يجد ما يقتات عليه في لحظات الموت السريري هذه...

أبوه! كيف كان شكله؟ لا يُعقل أنه نسي شكل أبيه! هل اقتطعوا ذلك الجزء الخاص بأبيه أيضا! ربما هنالك ما يدور في الخفاء حوله.

عليه أن يستأنف البحث والتدقيق في الذاكرة الطويلة عندما يسترد رأسه...

عليه أنْ...

- عليّ أن... آه...

أصوات حروف تجاهد لملمة قواعدها، لكي تتشكّل في جمل مبهمة، تعصف في رأسه كصوت ريح بعيدة...

- أظنّ أن أبي... ما... مات...

حاول أن يستجمع صورة أبيه، تغيّر صوت الريح ليتحول إلى طنين، بل خربشة اقشعرّ لها جسده، يدرك تماما أن أية محاولة لإنعاش الذاكرة، في أوقات البرمجة، مصيرها الفشل، لكنّه في كل مرة يحاول ويحاول رغم مرارة الفشل!

هذه المرة لم يقطع اليأس محاولته، إنما الخربشة التي استحالت إلى ألم خلّفه إبهام ابنته الصغيرة وهي تخز فخذ ساقه اليمنى.

هي ليست الذاكرة، إذاً، بل أصابع ابنته، صوت خربشة إبهامها، كعادتها تلتصق به، تغرس

ظُفرها الناعم في فخذه لتلفت انتباهه وتعيده مرغما إلى جوّ الغرفة الخانق حيث تُحيط به الأجساد الأربعة التي ينتمي إليها، أو يشعر بأنه غير منتم لها أحيانا!

انزلقت من مكانها لتنضمّ إلى إبهامها فتضغط بكلّ يدها على ساقه اليمنى، ورغم انزعاجه شكر الإله على أنّه ما زال يشعر بشيء حتى لو بوخزة ألم.

تحسّسَ دفء أصابعها فشعر بدمه يسري في شرايينه صعودا إلى أعلى جسده...

ثمّة رعشةٌ أوقفت سيل تدفق ذاكرته الاحتياطية التي يركن إليها لاجترار الوقت الفاصل بين ساعات البرمجة.

- حسنا فعلتِ، فذلك أفضل من أن أستهلك ما لديّ من خزين الذاكرة.

وعلى شفا هروب، أعادته شقاوتها إلى واقعه الذي صار يتمحور حول هؤلاء الأربعة، عائلته التي ينتمي إليها، وإن شعر بالغربة أحيانا.

لم تتركه يستمتع بتلك النشوة المنبعثة من تلامس جسديهما، بل عمدت إلى لفت انتباهه هذه المرة بأنْ وخزت قدمه بطرف قلم رصاص، فانتفض جسده، وندّت عنه ركلة أخافتها، إذ اختنقت بكلماتها كدجاجة لحظة ذبحها: لديّ امتحان غداً "أريد تقرّيني".

استجمع كلّ قواه الجسدية، ضغط على رقبته بإحدى يديه وبالأخرى على صدره كي يدفع الصوت للخروج، لكن محاولته باءت بالفشل.

أطلقت الأم آهة ساخرة، بين الضحك والبكاء، مما أثاره، فصمَّ قبضة يده وضرب على صدره صعودا نحو الرقبة، فجاءت الكلمات خشنة شاكية نكوار بعير: تعلمين أني لا...لا أستط...يـ...بيع الآن، رأسي خاضع لد...لد...برمجة.

2

هل يمكنه استذكار اليوم الأول للبرمجة؟

كان ذلك منذ زمن بعيد، أو هكذا بدا له الأمر، في ثمانينيات أو تسعينيات القرن العشرين، الذي صار يُدعى الآن "القرن الماضي"، ليس كما يراه هو، فالقرن العشرون ما زال حاضرا، حتى إنّه، حين يستعيد رأسه، ويعمد، نادرا، إلى كتابة مذكراته، يُذيّلها بـ ... 19، ولم يتجرأ يوماً على تحمّل بشاعة الرقم "اثنين" بأصفاره التي صارت تتناقص، فأيّ تأريخ هذا الذي يضمّ في وسطه أصفارا، 2000، 2001، 2002، كأنه مؤنث، لا يحمل خشونة العام 1962، عام مولده أحد الأعوام القليلة التي ظلّت محفورة في ذاكرته الاحتياطية، والعام 1985، عام تخرجه من الجامعة، و... بداية... ماذا؟

ندّت عنه حشرجة أقرب إلى النشيج وهو يستجمع آخر نفس من أوكسجين الذاكرة التي أخذت تَغيم فتختلط السنوات والأحداث، ليس مهمّا، فالذاكرة لا تخضع إلى منطق.

ليتَه يستطيع لفظ هذه الكلمة السحرية التي يعشق: (السبعينيات)، فقط، فعندها توقّفت الحياة! لكن أين؟ في منتصفها أم في النهاية؟ فهو كان مجرّد طفل آنذاك؟

ما عاد يتذكّر الكثير، حتى عندما يسترجع رأسه في الساعات المخصّصة لذلك، أو ربما... لم يعد الأمر يشكّل فرْقا، فأنْ تمتهن ذاكرتك لكي تعيش لهُوَ الجبن بعينه.

ليتَه تدرّب على الاحتفاظ ببعض الومضات من الزمن الذي يعشق: (السبعينيات)، فقط!

هل حقّا توقّفت الحياة عندها؟

متى بدقّة؟

كان طفلا، ثم صبيّا تتوالد أحلامه كل يوم، تكبر تتسع لينسج منها جناحين يعبر بهما إلى الرجولة لينطلق في رحلة البحث عن كأس المجد والخلود، لم يكن يعلم أنّ عشيقته (السبعينيات) ستغادر دون رجعة بعد أن ضحّت بعامه الثامن عشر على مذبح الثمانينيات.

ذاكرته الاحتياطية على وشك أن تنفد، وما زال يعوم في السبعينيات، في البداية منها، بداية ما كانت تُسمّى "حياة"!

لكنّ الثمانينيات موجودة، هي جزءٌ أكثر وضوحا في ذاكرته، منعشة كمرآى طالبات المرحلة الأولى في الجامعة، وموحشة كالصحاري الممتدة بلا نهاية حين كان يرقبها من على ظهر كل عربة جيش تقلّه إلى جبهة القتال.

بعد تخرّجه من الجامعة بشهرين تقريبا، التحق بخدمة العَلَم، حاول تأخير هذا اليوم بأنْ تعمّد الرسوب لسنتين دراسيتين في الكلية، وهو ما فعله أغلب زملائه آنذاك لتفادي شبح الموت الذي كان يربض على جبهات القتال، لكنه لم يستطع الإفلات أكثر من ذلك، بل تحول بين ليلة وضحاها من طالب كلية "مايص"، على حدّ وصف نقاط التفتيش، إلى مُعلّم قتال في معسكر تدريب ضمْن محافظة شمال البلد.

لم تَطلْ خدمته الإجبارية كثيرا في المعسكر، فبعدما فرغت المدارس من المعلّمين والمدرّسين، سُمح لخرّيجي بعض الاختصاصات بالعمل فيها كمُستخدَمين في الجيش، هكذا ابتسم له الحظ ليعود إلى الحياة المدنية كمدرّس للتأريخ في إحدى قرى محافظته الجنوبية التي أُجبِر على الخدمة داخلها لأنها مسقط رأسه، رغم أنّه عاش فيها سنواته الثلاث الأولى فقط.

بالرغم من كل عبارات التساؤل والاستهجان، لم تتراجع الأم، قبل أن تصبح أُمّا، حينما كانت مخطوبة، عن عهدها له، بل ظلّت تنتظره طيلة السنة الأخيرة التي قضاها خلال خدمته الوظيفية في تلك القرية المنفيّة، بعد أن رفض أهلها التحاق ابنتهم "ابنة المدينة" بزوجها في "الأرياف"، لذا حالَما أكملها وعاد إلى العاصمة حقّق حلمه في الاقتران بها.

تَململت الصغيرة في موضعِها، مالت لتتوسّد قدم أبيها ثانية، تدسّ أصابع كفها الصغيرة بين أصابع قدمه، تَعدّها من اليمين إلى الشمال مرة، ومن الشمال إلى اليمين مرة، الأمر الذي أثار حفيظته، فسحب قدمه بعصبيّة: د....دعي قدمي و....شأنها...

صرخت غاضبة: لا أقصد العبث بقدمك، أنا أدرس الحساب باللمس لأني لا أرى!

باغتتْه ضحكة أشبه بالتجشّؤ أخافتها لولا حنوّ يده التي جذبتها إلى صدره برقّة، كأنما ليقرّبَها من صندوق الحزن الذي لا تدركه سنواتها السبع: تستطيعين رؤية الأرقام. عيناك ما زالتا في مكانهما. هما كر... كرتان زجاجيتان تعكسان الصور... أنت فقط... لا... لا تس... تستطيعين أن... أن... أن تُبصري.

لم يستطع الإضافة أكثر، ربما لأنه يدرك بأنّها لم تفهم حرْفا مما قاله، فجاهد ليغرغر كأنه يحاول التقيؤ: ما هي إلّا... إلّا... دقائق وتعود الرؤوس... وماما تق... تق... "تقرّيح"...

لم تتمالك الأم نفسها من إطلاق ضحكة متقطّعة خالطها سعال، فهي وإن تظاهرت بتأنيب ابنتها لإلحاحها إلّا أن قأقأة الأب عادة تثير سخريتها فتُمعن في إذلاله: كفاكِ إلحاحا، لا تضغطي على أبيك لئلّا يبيض!

ردّ عليها: لستُ الوحيد يا آمنة، ألا تخجلين؟!

تململت الابنة الكبرى التي كانت تغطّ في شبه إغفاءة، حيث مقعد قريب، وندّت عنها أصوات مبهمة وهي تتقلّب، عليه، محتجة: "متخلّون واحد ينام"!

وجّهت كلامها الحاد النبرة إلى الصغيرة: انشغلي بلعبتك ريثما ينتهي وقت القطع.

أجابتها غاضبة: لعبتي مقطوعة الرأس، فكيف أضع لها الماكياج؟!

قالت الأم: لِمَ قطعتِ رأسها؟ هي مجرد لعبة. ليس مطلوبا منك أن تقطعي رأسها إن لم يفعلوا هُم ذلك! الألعاب غير مشمولة بالبرمجة، فهي لا تملك دماغا!

فوجئت الصغيرة، فأجابت ببراءة: كي تشبهنا يا أمي.

3

"أنت لا تشبهين غيرك من النساء".

هذا ما كنت أسمعه دائما ممّا كان يقوله لي، قبل أن يصبح أبا وأصبح أنا أُمّا، ليس لأنّ لي وجها مربّعا تعلو تضاريسه عينان عسليتان واسعتان لطالما تمنّيت لو كانتا سوداوين، فالعيون السود أكثر عمقا وغموضا. ينحدر من تحت هاتين العينين أنف رشيق ينتهي بقمّة مدبّبة تطلّ على شفتين مكتنزتين، ولون التربة السهلية التي تحيط بهذه التضاريس كانت تميل إلى السمرة الخفيفة، كأن قدري أن تحاكي تضاريسي تربة الأرض التي أحب. صحيح أن شكلي لم يكن مألوفا، كما يُردّد البعض، لكن هذا ليس بالتحديد سببا لكوني لا أشبه غيري، فأبي كان يصرّ على أني أشبه عمّته التي لا تحبّها أمي، فتصرّ بدورها على أنّي أجمل منها، وأنّي لا أشبه أحدا في العائلة.

بداية الأمر، كنت أظنّ أن هذا هو سبب اختلافي عن الآخرين، ذلك حين أستمع إلى تعليقات أمي حول سوء حظها بأنْ تكون ابنتها الوحيدة سمراء لها شفتان ضخمتان، ما يجعلني أشعر بأني من ذوات العاهات، خصوصا حين تسترسل في مقارنتي بابنة الجيران التي تشبه القمر ببياض بشرتها.

لا أتذكّر كم مرة بكيت بسبب ذلك، وكم مرة قلّدت طقوس أمي بالدعاء إلى الله الذي يصنع المعجزات، وكم وعدته بنذور إنْ حقّق أمنيتي بأنْ أصحو صباحا لأجد عينيّ قد استحال لونهما أزرقَ، لترضى أمي وتُسعد بي. لكنّ الله لم يستجب لدعائي، ربما لأن حصة عائلتنا من وقته كان يخصّصها للاستماع لدعواتها التي تختتم بها كل فرض للصلاة كي تشمل إخوتي وأبي والرزق والبيت وإخوتها، خصوصا صلاة المغرب، إذ تفترش سجّادتها وتقرأ سوَرا من كتاب الله وحزمة

من الأدعية لتبدأ وصلة الدعوات كأنها بذلك تمهّد له ليلتفت إليها. ولكي أنافسها على كرم الله ووقته، تعلّمت الصلاة وأنا في سنٍّ مبكرة، وعندما يحين موعد صلاة المغرب كنت أفترش سجّادتي بموازاة سجّادتها علّي أستبقها بالوصول لاستجابة الله.

لكن محاولاتي لم تثمر عن شيء، لم يتغيّر أيّ شيء جوهري، فقط بعض التحسينات التي تصاحب فوران أيّة مراهقة.

تدريجيّا خفّت سمرة بشرتي كلما كبرتُ، استطالت قامتي وتعلّمت كيف أُسرِّح شعري بمجفّفة الشعر ليبدو مسترسلا، وبتُّ أقضيَ وقتا في التمارين الرياضية لأنحت جسدي، فكان أن دخلت المرحلة المتوسطة بوجه وجسد يثيران إعجاب بعض أولاد الجيران وطلبة إعدادية البنين التي تقع في الجهة المقابلة من الشارع الذي يضمُّ مدرستي المتوسطة.

مع ذلك، لم يكن هذا هو سبب كوني مختلفة عن قريناتي، فهنالك الكثيرات ممن هنّ أجمل منّي شكلا، لكنْ ما يجعلني مختلفة في نظر أهلي، هو ما عبّرت عنه جدّتي الحكيمة ذات مرة وهي تقرص خدّي بإعجاب: "عقلها أكبر من عمرها". ورغم تساؤلاتي الصامتة عمّا كانت تعنيه حينها، أدركتُ الجواب بعد أن كبرتُ فجأة، على أعتاب الثالثة عشرة، وامتدّ لساني كسحلية ليجادل إخوتي وأمي مكرِّرة بعض ما تعلّمته من صديقاتي ومدرّساتي والكتب التي كنت أستعيرها من مكتبة المدرسة، لأختلي بها على سطح الدار دون علم أحد من العائلة. وعندما تفاقمت فصاحتي وصارت سببا لشكوى أمي، ثم قلق أبي، أجبرني على لفلفة رأسي بوشاح لإخفاء "كفشتي"، كما كان يطلق عليها، رغم أنّي كنت من بين القليلات اللواتي يرتدين الحجاب في ذلك الوقت، الأمر الذي ظلّ يشكّل لي معضلة كلّما جهّزت نفسي للذهاب إلى مدرستي صباحا، فلم

أستطع إجادة لفّ وشاحي يوما، وظلّت هذه المشكلة تلازمني حتى بعد أن كبرت وصارت قطعة القماش هذه جزءا من تكويني.

لم أكن أقصد أن أوسّع مداركي، أو أضيف لعقلي أكثر من المساحة التي كانت تزعج أهلي حين أدمنت رائحة الورق، وصرت أقضي جلّ وقت فراغي بالتهام ما يتيّسر لي من الكتب، لكنّي بدأت أشعر تدريجيّا بأنّي لا أشبه أقراني كثيرا، وأن عقلي بدأ يعمل بطريقة مختلفة.

هل حقّا بات رأسي يشكّل عبئا ثقيلا عليّ أم هو الامتصاص الساذج لأفكار أصدقائي في الجامعة ممن كان يُطلَق عليهم "شلّة المثقفين" الذين ساهموا في تغذية شعوري بالتميّز؟

أحيانا كنت أشعر بسعادة بالغة لامتلاكي هذا الرأس المختلف مع كل ما يسبّبه لي من موجات كآبة وحزن تنبع من تساؤلات مصيرية، لم أكن أنا أوّل من وضعها، بل لطالما كانت موضوعا للمفكّرين والمنظّرين من قبلي، وأحيانا كنت أنقم على رأسي المربّع لأن زواياه المتخَمة بالأفكار حجبت عنّي رؤية البساطة في الأشياء، فكان حُكمي على الناس مثلا ينبع من حجم عقولهم وهذا ما كلّفني الكثير من الخسارات حتى تمنّيت لو أنّي وُلدت برأس دون زوايا ولا أفكار، رأس جميل فقط، كما كان هو يتمنّى.

لم يتبّقَ سوى ساعتين على انتهاء القطع ليعود رأسها، أما كيف عرفتْ ذلك، فليس من خلال تقاطر دقّات الساعة الخرفة، إنّما بسبب صوت سقوط حبات الفاكهة الذي يتكرّر كل يوم في مثل هذا الوقت من المساء.

جمعتْ طاقة صوتها الذي اختطفته الذاكرة مؤنّبة ابنها ليوقف عبثه في الثلاجة، لكنّها تراجعت عن الصراخ بعد أن يئست من إصغائه لها!

ككل يوم... ها هو طفلها ذو الأحد عشر عاما، يعود مترنّحا متلمّسا طريقه، وفمه يُفرقع بمضغات التفاحة، ورغم أنّها تعرف الإجابة تساءلت حول هذا الأمر الذي يُحيّرها...

كيف يمكنه أن يشعر بالجوع إن كان بلا رأس؟

لماذا لا تشعر هي بذلك؟

ربما لأن فمه موجود كي يمضغ الأكل دون توقف، فقط، أو لأنهم تركوا فسحة في البرمجة تسمح للأولاد بالأكل، فهم في النهاية أطفال لا يمكنهم مقاومة الجوع، أو ربما لأن الأكل فعالية بايولوجية حياتية حيوانية لا تشكل خطرا على أمن الدولة!

حشر الولد نفسه على كنبة قرب أبيه، يقضم تفاحة بيد ويحمل باليد الأخرى كتابا، خرجت من فمه كلمات متعرّجة تخطوط أسنانه على التفاحة: ألن تساعدني يا أبي؟، لديّ امتحان في مادة التأريخ غداً!

تأفّف الأب، أشاح بوجهه بعيدا مُجبرا نفسه على الغرغرة لترتيب جملة: لمَ أنا؟ اذهبوا إلى أمّكم... لا أطيق صوت مضـ...مضغك للطعام بهذه الوحشية...

توقّف ابنه عن مضغ الطعام.

هل عليه أن يشعر بالإحباط لأن أباه يرفض تدريسه أم لأنه لا يطيق صوت مضغ الطعام؟!

لا يستطيع بالطبع أن يفكر...

أجاب ببطء شديد: لأنّك مدرّس تأريخ يا أبي، وأمي موظفة.

استسلم، شعر بالإجهاد لاضطراره إلى متابعة الجدال، فطلب منه أن يبدأ القراءة.

تلقّف عرضه بحبور وراح يقرأ بصعوبة بالغة: قامت الثورة على يد القائد....

زمجر الأب مقاطعا ابنه: لهذا لا أُحبّ التدريس... لقد زيّفوا التأريخ أثناء مصادرة رؤوسنا!

4

أمّا أنا فلا تعنيني البرمجة، لا يعنيني إنْ صادروا رؤوسنا، ما حاجتي إلى رأس لا أعرف كيفية استخدامه؟!

فأنا لم أفلح في دراستي، بالكاد أكملت الصف الأول المتوسط، وبعد أن قضيت سنتين في الصف الثاني، قرّرت البقاء في البيت، أو في الحقيقة لم أقرّر، بل تمّ فصلي من المدرسة.

هكذا بدأت حياتي مبكّرة ربّة بيت، وهذا ما يجعلني ساحة مناسبة لصراعات أمي وأبي من ناحية ولكلّ أنواع التأنيب الذي تجود به عليّ الماما حين تسترّد رأسها، لذا أُحبّ ساعات البرمجه فهي تقيني نصائحها وإحباط أبي الذي كان يحلم بأنْ تصبح ابنته طبيبة.

فيما يخصّ ذاكرتي، ليس فيها ما يُغني فضولكم، ربما كانت لديّ ذاكرة، لكنها صدِئت عندما لم أعد أستخدمها، أمّا لماذا، فذلك لأني أنام كثيرا، حين تنتهي البرمجة في الليل، بينما تسهر أمي لشحن ذاكرتها.

أحيانا أنام عند التاسعة، كي أتركَ متّسعا للأحلام، فما نفع الذاكرة إن غابت الأحلام؟!

لم تعد أمي بحاجة للأحلام، ولا أبي أيضا! بماذا سيحلمان؟ لديهما بيت مستأجر، ووظيفتان أكلتا أكثر من نصف عمريهما، ودواليب ترتجف برداً لقلّة ما تحتضنه من الملابس.

أيضا لديهما نحن، أنا وأخي وأختي الصغيرة، التي جاءت إلى هذه الدنيا في الوقت الضائع، كما تردّد أمي دائما، فلم تكن تنوي إنجاب أكثر من اثنين، بنت

وولد، وليتها أنجبت البنت فقط، التي هي أنا، فطفل واحد كافٍ ليُشبع غريزتها بكلمة (ماما) عوضا عن أن يصدّع رأسها ثلاثة بترديد الكلمة التي صارت عبئا عليها!

فيما يخصّ أحلامي، تزورني أحيانا، دون إذن مني، بينما أصنعها أنا، في أحيان أخرى، بل أفتح الباب لها لتكون ضيفتي، هي ليست كبيرة وعظيمة، كأحلام أمي التي تشتمل على ما تدعوه بـ(وطن)، بل هي مفصّلة على مقاسي، يتربّع على قمّتها الفارس الذي سيأتي ممتطيا سيارة فارهة، لا فرس، كتلك التي سقط عنها فارس أمي الغبي في أوّل جولة. بالطبع، لم تحدّثني عن فارسها، بل تجاهد لإخفاء إحباطها بأبي، الذي لم يكن فارسها يوما، هذا ما عرفته حين تسلّلت مرة إلى ذاكرتها، عرفتُ أن فارسا آخر امتطى صهوة أحلام شبابها، لكنّه اختفى، ولم أستطع أن أعرف كيف ولماذا حتى الآن! فأمي حريصة جدّا على صندوق ذاكرتها المقفل بإحكام في زاوية من رأسها، نادراً ما تغفو خشية أن يسطو عليه أحد أثناء نومها، وهذا (الأحد) ليس أنا أو أبي، بل أحدهم، من خارج دارنا، أولئك الذين يفحصون الذاكرة كل يوم ليتأكدوا بأنها ما زالت كما هي، لم يتم تجديدها.

- منذ متى؟

فاجأتني بهذا السؤال، أثناء نزولي السلّم متسلّلة بعد رحلة عاطفية نظّمتُها للاحتفال بعيد ميلادي مع حبيبي على سطح الدار.

لم أعرف كيف أجيب، وحدها الكلمات خرجت دون إذن مني: أحببتُه يا أمي.

اتّسعت حدقتاها دهشة، كزّت على أسنانها كمن يستعد لالتهامي، فعندما تعود الرؤوس، أستطيع أن أرى بوضوح حدة التعابير في وجهها الصارم أبداً، يُصبح

مخيفا، تتراقص غضونه على نبرات صوتها الغاضب، بينما تتطابق نظرات عينيها مع انفعالاتها، مما يجعل التملّص من سطوتها مغامرة لا تنجح في الكثير من الأحيان.

- هل حقّا شعرتِ بالحب؟ متى وجدتِ الوقت لذلك؟ رأسك فارغ تماما من كل مشاعر، المشاعر أيضا يحرّكها الدماغ... كذلك الرغبات... فهل استطعت أن تحبّيه دون مشاعر؟ فقط الجسد يمكنه أن يخزن الرغبات من البرمجة، إذاً هي الرغبة، الجسد؟

لم أفهم الكثير مما قالته، لا يمكنني وصف ما أشعر به، فأثناء ساعات البرمجة، أنسى تماما جاري الذي رمى لي وردة حين كنت أراجع دروسي قبل سنة. هو أيضا كان يراجع دروسه على سطح الدار حين كانت ساعات البرمجة أقل. أتذكّر أنّي كنت منشغلة بمراقبة اللون الوردي الذي يقسم السماء إلى نصفين كشفاه ممثلة كانت تغريني بتأمل صورتها. أجفلتني الوردة التي سقطت عند قدمي اليسرى، كانت بلون شفاه السماء، أو هكذا ظننت لوهلة، بأن السماء ألقت إليّ بشفاهها لتمنحني فرصة لتجربة قبلتي الأولى، لا أعرف إن كان ذلك حبّا أم رغبة كما يحلو لأمي أن تُفلسف الأمر.

ـ أحببته من خلالك يا أمي... بذاكرتك التي كانت تعرف الحب، على سطح دارنا!

- لكننا لا نملك سطحا، هي مساحة صغيرة مكشوفة أيتها الغبية.

ـ أنت كنت تملكين... في بيت أهلك، حين كنت في مثل سنّي!

كأنّ جيوشا تأهّبت في عينيها، استعدادا لساعة الصفر، بانتظار أمر يطلق يديها لقتلي، وفمها لالتهام أجزائي. لا أظن أن أمر علاقتي السرية هو ما أرعبها تماما، بل لكوني تسلّلت إلى ذاكرتها، وهذا ما لم تكن تتوقّعه. كانت حريصة على

البقاء في البيت عند انتهاء القطع المبرمج وعودة الرؤوس إلى أصحابها، فهي تستغلّ كل لحظة لتغذية ذاكرتها من ناحية، وللحفاظ على سرية التصاقها بهذا الرأس الذي كانت تمتلكه كلّه يوما ما، قبل أن تتمّ مصادرته لاثنتي عشرة ساعة يوميّا. لذا وقع عليها خبر سطوي على صندوق ذاكرتها، كوقع أوّل صاروخ يسقط على مدينة مسالمة!

ـ في الحقيقة... تسلّلت مرة إلى رأسك حين كنتِ خارج الدار.
- متى كان ذلك؟ غالبا ما آخذه معي. فأنا لا أخرج في فترات القطع المبرمج!

كأنها استعادت وعيها بعد عملية جراحية، ترنّحتْ، هوتْ جالسة على أول سلّمة، قطعت عليّ أية فرصة للهروب من الموقف، فجسدُها المربّع يكفي لغلق بوابة مدرستنا، فكيف بسلّم دارنا الضيق، كانت الحسرة أكبر من كل الحروف التي نطقتْها، حتى بالكاد استطعت تجميع ما قالت: آه، كان ذلك عندما ذهبتُ إلى الطبيبة، لم أتوقّع أن تتغيّر ساعات البرمجة، لم يُشعرونا بذلك، ومتى فعلوا؟ نعم، خرجتُ دون رأسي، نسيتُه، خنتُه هذه المرة، وخُنتِني أنت!

ـ ليتك تخونينه دائما يا أمي، أنت لا تحتاجينه في الخارج... عادةً تضعين شالا يُغنيك عنه... شالُك يُغطّي حتى الرقبة... ربما لا تحتاجين للرقبة أيضا!
- بماذا ستُفيدك رقبَتي؟ أحتاجها لكي ألتفت يمينا ويسارا عندما أعبر الشارع.
ـ يمكنك الاعتماد على الإشارات المرورية.
- رفعوها كلها، لا يريدون منا أن نطيع أحدا غيرهم.
ـ فلماذا تطلبين مني أن أطيعك إذاً؟

مدهشٌ أن يكبر الأبناء دون أن نلاحظ ذلك، ربما نلاحظ، بل لاحظتُ، نعم، زيادة أطوالهم عندما كنت أشتري لهم ملابس جديدة، فلا يعود للقديمة جدوى...

لاحظتُ تكويرة صدر ابنتي وهي تحاول إخفاءها عن عيني أبيها، فرحتُ بأولى استغاثاتها وهي تُواجه آلام دورتها الشهرية.

أفرح أحيانا وأحزن في أحيان أخرى، فكونهم يكبرون، يعني أنّهم قريبا سيُغادرون بيتي بعد أن غادروا حضني.

أمّا ما يُدهشنا، فهو ليس ما نلاحظه من تغيرات جسمانية أو بايولوجية، بل من سلوكيات كبيرة لمن نظلّ ننظر إليهم على أنهم أطفال، كهذه العلاقة التي ربطت ابنتي مع ابن الجيران. أمرٌ يحيّرني، لا أعرف كيف أتصرّف حياله! هل أمنعها كشأن كل الأمهات، أم أغضّ الطرف عنها؟ علّها تجد في هذا الفتى عريسا، وهو كل ما تحلم به بعد أن فشلت في دراستها، وصارت جزءا من أمتعة البيت!

الغريب أننا مهما حاولنا إخفاء ذاكرتنا عن أبنائنا، سيَصلون إليها، سواء بحدسهم أم بحثهم، أم بمحض صدفة تقودهم إلى الطرق نفسها التي سرنا عليها، لذا، يبدو من العبث أن نسعى لأنْ نجنّبهم المزالق التي تعثّرنا بها خلال نشأتنا، شئنا أم أبينا، سيسيرون بالطرق ذاتها ليكتسبوا التجارب عينها التي اكتسبناها، لا فرق سوى في اختلاف التوقيتات.

في داخلي، لا أمانع، بل أتمنّى أن يتعلّموا مثل أو أكثر مما تَعلّمت، شرط ألّا يتألموا كثيرا كما تألّمتُ، لهذا كنت حريصة على إخفاء ذاكرتي عنهم، حريصة للاحتفاظ برأسي على كتفي حال استرداده بعد ساعات القطع المبرمج. لا أريدهم أن يستنشقوا الدخان المنبعث من حرائق الماضي، لا أريد لهم أن يرتعبوا من مشهد ركام أحلامي. جاهدتُ لإيصال القليل الذي ظننت أنهم بحاجة لمعرفته، من خلالي أنا، وحجبت عنهم كل ما هو مؤلم. خشيت على رؤوسهم الصغيرة أن تتصدّع لمرآى شظايا الخيبات، أن تزكم رائحة الخوف أنوفهم التي

ملأتها بعطر حضني، من أن ترى أعينهم صورا للحقيقة، حقيقتي أنا، أنا التي لطالما اختبأت طويلا خلف ذاكرتي... وخبّأتها أيضا... نعم... بذلت جهدا كبيرا لأبعدها عن أعين المراقبين، أولئك الذين يتحيّنون الفرص للانقضاض على من يمتلك ذاكرة حيّة. أصابني الإرهاق لكثرة ما سهرت على رعاية هذه الذاكرة حتى أنّي تمنّيت أحيانا لو أمتلك الشجاعة لأسحق رأسي فألفظها بعيدا كي أتخلص من أفعى القلق التي تزحف في فراشي، تحت وسادتي، بل تحت جلدي، لو فقط أمتلك القدرة على قطع رأسي لأتخلص من ورطة أقحمت نفسي فيها! كانت التعليمات واضحة تماما، لا يسمح لنا باستعمال رؤوسنا لاستجلاب ذاكرة الزمن البعيد الذي أعدموه، بل يحقّ لنا فقط أن نشحن ما تيسّر من ذاكرة تكفينا لممارسة فعالياتنا الحياتية الحيوية اليومية، فقط لا أكثر. لكنّي لم ألتزم بالتعليمات، منذ أن عرفت بأنّ المراقبة تخفّ ليلا وأنا أسهر الليالي لشحن ذاكرتي كي أظل بكامل وعيي، كي لا أتحوّل إلى دجاجة تقأقئ وتأكل وتنام كما حصل مع زوجي الذي استسلم وصار يقضي وقته في النوم حتى يتعذّر عليه أن يتذكّر أبناءه أحيانا. في الحقيقة، هم أبنائي، هو لا يعرف عنهم أكثر من عموميات، بينما أنا التي حملتهم في رحمي وتوّليت تربيتهم أثناء غيابه الدائم عن كل شيء، أدركُ كلّ تفاصيلهم، أشعر بنأمة حزنهم، بنشوة فرحهم، أعرف كذباتهم البيض!

هل حقّا كنت أعرف؟ كيف إذاً خرقت ابنتي المألوف؟!

خرقت أوّل قاعدة في تربيتي لها، الأمانة، ذلك حين استغلت غيابي واسترقت النظر إلى رأسي حين أعادوه بسبب خلل في جدول البرمجة، أو ربما أفلتوا السيطرة على الجدول بسبب القصف الذي تعرضت له المدينة تلك الليلة.

السطح والقصف عاملان مشتركان بيني وبين ابنتي... بفارق زمني يتعدى عشرين سنة.

5

رغم أن اسمي كان وما يزال حسبما أتذكّر "آمنة"، كانوا يلقبّونني بـ(الحكيمة)، أخبرتكم بذلك سابقا على ما أظنّ، لكنّ حكمة ابنة الخامسة عشرة التي كانت تنفع لحلّ مشكلة صديقتي إسراء مع حبيبها، أو تقديم نصيحة لريم التي ينوي أهلها تزويجها من ابن الجيران الغني، تساقطت أوراق التوت عنها يوم دوّت أولّ إطلاقة رصاص في الحي الذي أسكن، يصحبها خليط غريب من زغاريد وأصوات نواح.

لم تَصلنا دعوة عرس، ولم يعلن مؤذن الجامع عن وفاة أحد، لكن الأعراس الحزينة هي ما فرضت نفسها علينا دون حاجة إلى دعوة أو إعلان. ركنت كتّابي جانبا، فقد كنت عادة أحضّر لامتحاناتي على سطح الدار هربا من مشاحنات إخوتي وصوت التلفاز الذي يفضّله أبي عاليا وهو يقلّب القنوات سعيا وراء أخبار الحرب التي بدأت للتو. أدركت الآن أنها بدأت، عندما تسلّقت أمي السلّم إلى سطح الدار لتلقي نظرة على الموكب الذي خرج كل أهالي حيّنا لملاقاته، استندتْ على حافة حائط السطح، وهي ترفع آخر طرف من أصابع قدميها لتتمكّن من رؤية المشهد كاملا، كنت أسمع نشيجها وهي تولول وترثي الشاب (العريس).

ما زال المشهد مبهما، فلماذا يموت إن كان عريسا، ومن هو؟!

أجابت وهي تكفكف دموعها التي اختلطت بسوائل أنفها: أول شهيد يدخل حيّنا، علاء ابن الجيران...

ورغم أننا لا نعرفه تماما، ودار أهله (الجيران) تبعد عنّا مسافة سبع دور تقريبا، كانت دموعها سخيّة لتبكي شبابه الذي خلّدته رصاصة، وبدلة عرسه التي استعاض عنها بعلم غلّف التابوت الذي سينقله إلى داره الأبدية!

يوما بعد يوم، ازداد عدد التوابيت التي دخلت حيّنا يقابله خفوت لعلعة الزغاريد، ليرتفع صوت الصراخ والعويل فقط، ويصل أحيانا إلى حدّ السباب والشتم والدعاء على من كان السبب، فلم يعد الأهالي يفخرون بابنهم (الشهيد) قدر حرقتهم على فقدانه.

حتى أمي، لم تعد تولول هي الأخرى عندما ترى مشهد التابوت المغلف بعلم عراقي وهو يُقدَّم لأهل الشاب كهدية ليلة الميلاد المفاجئة، مضافة إليها شهادة وفاة!

سألتُها مرة، عندما لم يعد عقلي (الكبير) قادرا على تفسير ذلك: لماذا يموت كل هؤلاء؟

- إنها إرادة الله.

ـ لماذا لا تتطابق إرادة الله مع إرادة أبنائه؟ أليس هو من خلقَنا؟ فلمَ ينفّذ إرادته فقط ويتركهم يموتون؟ أيّ أب يسمح بذلك؟

لطمتْ خدّها كعادتها عندما يفاجئها أمر ما، وصرخت بوجهي محذرة: بسبب أسئلتك المارقة هذه سيقلب الله بنا البيت.

أثار خوفها الرعب في نفسي، فأردت طمأنتها: لا تقلقي يا أمي، فلن يحصل ذلك قريبا، حتى لو قرّر أن يقلب بنا البيت، فلن يفعل ذلك الآن، لأنه بطيء في استجابته للدعوات، من المؤكد أنه سيكون أيضا بطيئا في اتخاذ قرار بعقابنا.

كم مرّ من الوقت، بدا كأنه دهر من الزمن؟!

ما زالت تتكوّم على السلّمة الأولى حيث تركَتْها ابنتها الكبرى تستهلك خزين ذاكرتها الذي لم يكن هذا الجزء أفضل ما فيه باستثناء صورة أمّها التي كادت أن تنسى تفاصيلها لكثرة انشغالها بشحن الذاكرة بما ينفع لليوم والمستقبل.

هل هناك ما يُدعى "مستقبل"؟

ليست سوى أيام متشابهات، تُحدّد تواريخها ساعاتُ البرمجة التي صارت تنظّم حياة عائلتها وعوائل أخرى. في الصباح تذهب إلى عملها لتلتقي بأجساد تتكوّم في غرفة، تتهدّل رؤوسها فوق ملفات تراكمت على المكاتب. هناك لا يوجد وقت للحديث، حتى إن وُجد هو غير مسموح به، فرؤوسهم تُمنح لهم وفق نظام برمجة خاص بالدوائر الرسمية، تحت رقابة صارمة، يتمّ فيه تزويد الموظفين برؤوسهم خلال فترة عملهم، لأجل العمل، ليس لغرض الخوض في أحاديث قد تذهب بهم بعيدا إلى مناقشة واقع صار عصيّا عليهم تفسيره.

عند الثالثة تعود إلى البيت، لتجد زوجها وأبناءها قد عادوا، والجميع بانتظار ما تجود به يداها من طعام، هي محظوظة إنِ استطاعت أن تنجز فرض الغداء قبل أن تبدأ ساعات القطع، حتى إنْ حصل وصودرت الرؤوس، سيأكلون طعامهم بما تبقّى لهم من تجاويف الفم، فهو سيذهب إلى المعدة التي يسمح لها النظام بالعمل خلال أوقات الطعام المحدّدة!

أيضا النوم مسموح به في أي وقت، بل يُشجَّع الناس عليه، فكُلّما طال قلّت قدرتهم الفعلية!

عادة، هي لا تنام كثيرا، خصوصا بعد الغداء، فواجباتها كأم وربة عائلة تُستنسخ كل يوم، لكنها تُجبر نفسها أحيانا على أخذ قيلولة بعد أن تلقي محاضرة

مكرّرة على ابنتها في ضرورة أن تتحمّل بعض المسؤولية وتأخذ دورها في مساعدتها ببعض الأعمال المنزلية.

هذه اللحظة بالذات، شعرتْ بالحاجة إلى النوم، رغم أن الوقت ما زال مبكرا، لكنها خائرة القوى بحاجة إلى مكان يحتضنها، زاوية تنتمي إليها، وفراشها هو الزاوية الوحيدة التي تحتويها، يلمّها، تلتصق به حتى تتوّحد معه أحيانا، كنبتة تحتاج إلى تربة تحتضن جذورها.

استنهضت كلّ اللحم التي تشكّل جسدها وحاولت أن تقف، كانت واهنة تماما، بالكاد دفعت بقدمها اليمنى خطوة، وقبل أن تتبعها بالقدم اليسرى، اعترضت طريقها كرة تدحرجت من الممر باتجاه السلّم.

بينما كانت تجاهد لقذف كلمة خارج فمها، تدافعت قدما ابنها يجري متعقّبا كرته، انحنى بين قدميها فاختفى نصفه الأعلى حتى لم تعد ترى سوى مؤخرته، التقط الكرة وباغتها بإلحاح: متى يحين موعد العشاء؟ أنا جائع.

لم تكن بها رغبة في الرد عليه، فكل ما فيها يترنّح، لم يتبقّ لديها هدف في هذه اللحظة سوى أن تضع رأسها على وسادتها وتغمض عينيها في إغفاءة، لا يهمّ إلى متى!

- اذهب إلى أختك، أنا متعبة، سأنام قليلا.

ـ هل تنامين أنت ايضا يا ماما؟ لم أرك يوما تنامين!

ككل مرة، امتصّ غضبها بحنانه، مسّدت أصابعها شعر رأسه المبعثر بحنان، انتابتها رغبة عارمة بالبكاء، فأي قدر يجعل منها حارسة لا تنام؟!

تبعت قدميها إلى غرفة نومها، فتحت بابها فاستقبلها شخير زوجها، كعادته دائما، ينام على ظهره ويشبك يديه على صدره، مما يزيد من قابليته على الشخير، ولكي

تستطيع النوم، عليها أن توقظه ليغيّر وضعية نومه علَّ ذلك يساعد على تخفيض نغمة الشخير التي كانت وما زالت تزعجها.

جلست على السرير، نظرت إليه كأنها تراه لأول مرة!

ترى هل يعلم بما تفعله ابنته؟ وماذا إن علم؟

قبل سنوات من الآن كان قويّا كفاية ليفعل أيّ شيء، من المؤكد أنه كان سيضربها هي وابنتها، أمّا الآن فأصبح واهنا بطيئا في استجابته لكل شيء، كأن ما يدور حوله لا يعنيه، ألقى عليها بعبء المسؤولية وأراح نفسه من التفكير، ربما نسي ما هي مسؤولياته بفعل عملية حجب الرؤوس التي مضى عليها سنوات، فهو لا يبذل جهداً في استرداد ذاكرته عندما تسترد الرؤوس، بل يسعى إلى النوم، ينام في يقظته وفي نومه.

حين أسندتْ رأسها إلى الوسادة، أحدثَ ثقلُ وزنها صريرا في السرير، وقبل أن تمدّ يدها لإيقاظه كي يغيّر وضعية نومه، استفاق بنصف عين مغمضة كأنه اعتاد مثل هذا الفعل كل يوم، ككلِّ الأشياء المخزونة في عقله اللاواعي. عندما يسمع صرير السرير يقطع غفوته، يدرك أنّها ألقت بثقلها إلى جانبه، سيضطر إلى الابتعاد قليلا كي يتيح لحجمها مكانا، فقد زاد وزنها كثيرا في السنوات الأخيرة حتى صار يخشى أن يتكوّم وإيّاها على الأرض إنْ عجزت قوائم السرير يوما ما عن احتمال ثقل وزنها. قبل أن يلتف بجسده إلى الناحية اليمنى، لمح بقايا دمعة في عينها، مما يعني أنها مغمومة، فهي لا تبكي بسرعة، كحال معظم النساء، بل تحتفظ بدموعها للهموم الكبيرة. حتى عندما تبكي، لا تفعل ذلك أمامه أو أمام الأبناء أو الناس، بل تأوي إلى سريرها لتجود بدمعها على نفسها فقط.

فرك عينيه بأصابعه ليتأكد مما كان ما رآه حقيقة.

كأنها شعرت بمحاولته، مدّت يداً لتمسح أنفها في محاولة تمويه، عدّلت وسادتها وأخذت تستلقي ببطء.

حدّث نفسه: هذه الحركة تُذكّرني دائما بالجسور المعلقة في بلدان الغرب، أراها على شاشة التلفاز حين يجري رفعها محدثة شقّاً في الجسر، وحين تعود إلى مكانها ببطء شديد ليلتحم ثانية مفسحا مجالا لمرور السيارات.

لم يجرؤ يوما على إخبارها بأفكاره الساخرة هذه، فهي لا تلقي بالا لزيادة وزنها، هو أيضا لم يعد يهتم لشكل جسدها أو تسريحة شعرها.

بعد سبعة عشر عاما من الزواج، تصبح الزوجة جزءا من البيت لا يمكن الاستغناء عنه، كما لا يمكن احتماله، ككل الالتزامات التي تولد معنا، ككل الناس الذين يرافقون مسيرة حياتنا، ككل الدروس التي لا نفهم منها سوى لحظة يدق الجرس معلنا انتهاءها، كأعضاء جسدنا التي ليس لنا إرادة في تغيير شكلها، كالحياة نفسها!

أمّا هي، فلم تجد ضرورة لإيقاظه بعد أن لمحته يفتح إحدى عينيه...

ماذا لو أنه التفت ناحيتها، ومد يدا رقيقة لاحتضانها؟

ماذا لو كان فعلاً قد لمح دمعتها وسألها عن سبب حزنها كما كان يفعل "أيام زمان"، في سنوات زواجهما الأولى؟

لم يحدث أيّ مما توقّعته أو ما تمنّت أن يحدث، بل عوضاً عن ذلك ندّت عنه همهمات: يا... نسيت اسمك... اللعنة على الذاكرة...

- نسيت اسمي حقّا؟!

ـ كل ما أعرفه أنّك زوجتي... ستظلّين كذلك... فما حاجتي لاسمك؟!

6

فعلوا خيراً حين صادروا رؤوسنا، وحجبوا الذاكرة، فرأسي يكاد ينفجر حين يعود إلى مكانه!

من المؤكّد، سبق لي أن عشت لحظات جميلة في حياتي التي تعدّت سنواتها الأربعين، إلّا أن ذاكرتي، التي صودر معظمها، لا تجود عليّ سوى بأصوات الطائرات الحربية، وأزيز الرصاص، وحينما أتجرّأ على الغوص فيها أكثر، يطالعني وجه صديقي الذي كانت يده هي نصيبي من أشلاء جثّته التي تناثرت علينا حين باغتتنا غارة جوية، في طريق عودتنا من جبهة القتال. غسان، هذا اسمه على ما أتذكّر، كان يضحك كثيرا، ويلقي الدعابات باستمرار، فتنتشر عدوى الضحك بين الجنود، خصوصا عندما يحوّل المخبأ الذي نشغله إلى مسرح لتقليد حركات الآمر، والضباط، وبالطبع زملائه، نحن، حتى تعرّض للعقوبة أكثر من مرة، ومع ذلك لم يتوقف عن الضحك أو يكف عن إضحاك الجنود أثناء التمرين الصباحي، وهكذا توقّف الآمر عن معاقبته بعد أن يئِس وأيقن أنه لن يتغيّر وأن قابلياته الكوميدية لن تؤثّر على زملائه، بل تبثّ فيهم الحيوية والنشاط.

بين ركام مرارة هذه الذكريات، لن تعود لاسم زوجتي أهمية، خصوصا بعد سبعة عشر عاما من الزواج، فبعد أن تضمحلّ كلمات الحب، شرارة اللهفة، لا يظلّ لنا إلّا تواصل الجسد، بل حتى الجسد يعتاد الحركات والانفعالات، فتضمحلّ الرغبة، كطريق حفظت خريطته عن ظهر قلب حتى مللت السير فيه. حفظتُ خريطة جسدها، ذلك الذي كان يوما يشعل حتى أصابع قدمي حدّ الاحتراق حين كنت أراها تسير في الشارع أثناء عودتها من الجامعة، فقرّرتُ أن تكون زوجتي، ممّا أثار حفيظة أمي، ليس لسبب إلّا لكونها ابنة

الجيران الجدد الذين يغلقون بابهم في وجه الناس ويعيشون في وحدة لا مبرر لها، سوى احتمالية أنهم يخفون أمراً شائنا يلوّث تأريخهم.

"آمنة"...

أصبحت حربي الوحيدة التي أسعى فيها إلى النصر، مغامرة الشباب الذي ليس له حظٌّ في مغامرة أخرى، فقد قرأتُ يوما بأنّ الزواج هو المغامرة الوحيدة التي تتاح للجبان. لذا فإن ما قد تخفيه عائلتها الغريبة لم يكن يشغلني كثيرا، بل جلّ ما كان يشغلني هو خوفي من أن أعود يوما في إحدى إجازاتي لأجدها قد تزوّجت بآخر. لكن ذلك لم يحدث، فقد تخرّجتْ وعملت موظفة في أحد البنوك حسب الأخبار التي كانت تردني من ابن الجيران الذي استطاع أن يكوّن صداقة مع أخيها.

"آمنة"...

الفتاة المحتشمة التي تسير بشموخ خجول، أصبحت غايتي، حلمي الذي أروم تحقيقه من بين أحلامي الكثيرة التي وُئدت على مذبح الخدمة العسكرية، لذا بعد انتدابي للعمل كمدرّس في المحافظة الجنوبية البعيدة التي وُلدت فيها، تقدّمت لخطبتها، فوافق أهلها فورا شرط أن يتم الزواج في بغداد، فليس ممكنا في نظرهم أن ترافقني ابنة المدينة إلى الريف.

تمّت الخطوبة، وتحقّق ما كنت أريده، أن تصبح لي، أمّا هي فكانت تتصرّف كأن الأمر لا يعنيها، بل لم ترسل أيّة إشارة توحي بأنها تعلم بما جرى بيني وبين أهلها، فكانت كلّما صادفتُها في الطريق تجاهلتني تماما، وكنت أعزو ذلك إلى الخجل.

وعندما... عندما... عنـ...د ... ما...

قرقرَ وهو يرفع يده إلى مكان الرأس ليتأكد من وجوده: هل هو وقت البرمجة؟ غادرني رأسي!

استدار نحو الساعة المعلقة على الحائط، تشير إلى السابعة و40 دقيقة، سرقوا من الوقت 20 دقيقة، لم يعودوا دقيقتين في اتّباع البرمجة.

اهتزّت قوائم السرير ثانية، التفت ناحيتها، كانت تحاول النهوض، ما زالت تحتفظ برأسها، لِمَ هو إذاً؟!

غرغر ليرتب كلماته: هلّا تأكّد...تِ... إن كان... رأسسسي في مكانه؟!

- نعم ما زال في مكانه، لم يحن الوقت بعد للبرمجة.

ـ لكنّي أشعر... أقصد لا... لا... أشعر بوجوده...

- لا بدّ أنك استهلكت ذاكرتك، بينما كان عليك أن تشحنها حين استعدتَ رأسك!

ـ لكنها لا تحتاج شحنا... إنّها تعمل... فقط عندما... تغادر الرؤوس... نحتاج... استخدام الشحن... أظنّه عاد... أشعرُ بأنه عاد... ما الذي يحدث؟ كأنّه فقدانٌ مؤقت للوعي.

- صحيح... لم يحن موعد القطع بعد... لا بدّ أن هنالك خللا ما في التوصيل... علينا أن

نتصل بإدارة البرمجة لنعرف ما هي مشكلة رأسك... لماذا يتوقف عن العمل في الوقت الذي تعاد فيه رؤوسنا إلينا؟ ربما سجّلوا عليك مخالفة.

أرعبتها الفكرة... سحبت ذراعه، هزّتها بقوة كأنها تحاول أن تعيده إلى وعيه: هيّا... أجبْ... ما الذي كنت تفكّر فيه؟ أخشى أن يكون أمرا خطيرا فيعود علينا جميعا بالخطر... قُلْ.

ـ لا أتذكّر... هل تتذكّرين أنت؟

- كيف لي معرفة ما يدور في رأسك يا "رِجّال"؟!
ـ كل ما أتذكّره... إنه أمر قديم... ليست فيه مخالفة... بل... كنتِ أنتِ... هناك في رأسي!
- أنا؟ لمَ تهدر ذاكرتك حولي وأنا أشاركك الفراش الآن؟
ـ للذاكرة وجه مومس وعبث طفل، تغرينا وتنزلق، يصعب التحكم فيها أو نصحها أو تأديبها أو حتى فهم ملامحها. ما زال فيك عطر من "آمنة" أثار الذاكرة، فغازلَتني بطعم قبلتنا الأولى.

7

أوّلُ قبلة، هل سأنالها حقّاً؟

لم يتبّق من نور الشمس إلّا حمرة خفيفة تصبغ خد السماء كأنها تشاركني خجلي الذي أستشعره حرارة تصعد مداهنة إلى خدّي. لو كان بإمكاني فقط أن أستلّ المرآة من حقيبتي لأرى تضرّج الحمرة في خدّي حين زحفت يده بنعومة تستكشف تضاريس يدي. لم يكتفِ بذلك بل تفرّقت أصابعه لتتوزّع بين أصابعي...

هل ما زالت نَمساً؟ أشعر بأني فقدت إحداها أو أكثر وهي تذوب في حرارة يده...

بهدوءٍ حكيم، كان قرص الشمس يعوم على سطح النهر، تتوزّع حوله خيوط لامعة.

مرّت الدقائق ثقيلة...

كلانا ينتظر أن ينشر الليل عباءته على المكان لنختبئ تحتها ونحن نسعى لتهريب حلم.

كلانا كان يفكر باللحظة المقبلة، هو ينتظر حلول الظلام ليقطف القبلة التي وعدتُه بها عندما تحدّثنا ليلة أمس على الهاتف في غفلة من عيون أهلي الذين هجروا غرف الدار ليستقروا في الحديقة هربا من الحر، وأنا أيضا كنت على شفير اللهفة لفضّ عذريّة شفتي.

ضغط يدي برقّة، أطلق آهة، أطرقتُ لأخفي ولهي وإحراجي، من خلال لهيب أنفاسه شعرتُ بأن المسافة بين وجهينا على وشك أن تتلاشى. بيده الأخرى

لمس خدّي ليقرّبه إلى شفتيه، لم أجرؤ على النظر إليه رغم أن المسافة بين وجهينا اقتربت من نقطة الصفر، وكلّما اقترب أكثر دبّت حرارة في كل زوايا جسدي، حتى اشتعلت كل خلاياه. مرّر شفتيه على خدّي، فسرى خدر في شفتي يشبه ذلك الخدر الذي يشلّ وجهي بعد حقنة طبيب الأسنان.

أيّة مقارنة غبية! شتّان بين رائحة مخدِّر الأسنان ورائحة أنفاسه التي تمتزج برائحة الدخان!

سرعان ما طردتُ صورة كرسي عيادة الأسنان من رأسي حين ضمّني إليه برقّة فاستقرّ رأسي على رقبته ليمرّر شفتيه على تضاريس وجهي.

لو كنتُ فقط أستطيع أن أدفعه بعيدا وأهرب من جحيم انتظار شفتيه!

ماذا إنْ رآنا أحد الآن؟

أرعبتني الفكرة، فحرّرتُ رأسي من يده وتلفتُّ يمينا ويسارا، شعر بقلقي فلمس وجهي بأطراف

أنامله ليقرّبه إليه أكثر: ما بك؟ لا تخافي.

- تعلم أن هذا ممنوع.

ـ لا نفعل أمرا سيّئا، الحب ليس ممنوعا.

كنغمة ناي عند الغروب تفجّرت ينابيع شفتيه: أُحبّكِ.

لم أعد أتذكّر أين نحن، هل هناك غيرنا في هذه البقعة، في المكان كله، على وجه الارض؟

لا أظنّ، فقط أنا وهو، وقبلة بانتظارنا.

اقتربت شفتاه من شفتيّ...

ثمّة ارتجاف، ثُمّ حرارة تخلّلت كل مساماتي...

شعرت برطوبة في لباسي الداخلي، شعورا يشبه ذاك الذي انتابني وأنا اشاهد قبلة ساخنة بين حبيبين في فيلم عربي!

ليلتها كنت أضطجع على كنبة متوسّدة يدي، لم أكن أعرف وأنا في الثامنة من عمري لماذا تسبّبت القبلة الساخنة بالرطوبة في...

تداخلت معها مشاعر غريبة!

هل تبوّلتُ؟

قفزت نافضة عنّي جسدي، هرعت إلى الحمّام لأتفحص لباسي الداخلي خشية أن تضبطني أمي بجريمة التبول فتمطرني بأقسى الكلمات عقابا.

لم يكن بولاً، بل كان سائلا لزجا ذا رائحة لم آلفها سابقاً، قد يكون أمرا يستحق العقاب أيضا!

ففي إحدى الليالي، عندما كنت أنام على الأرض في غرفة نوم أبويّ، سمعت أبي يهمس لأمي: اخلعي لباسك.

أغمضتُ عينيّ بشدّة، كي لا أرى عقاب أبي لأمي لأنها، كما كنت أظنّ، تبوّلت في لباسها!

لا أعلم كيف تسلّلت مشاهد العقاب والخوف إلى ساحة عرس قبلتي الأولى!

تلاشى الكون كلّه، لم يعد يفصل بيننا سوى هسيس أنفاسنا التي تجري في جسدين منفصلين اتّحدا بقبلة، لا أتذكّر كم استمرّ الأمر، أغمضتُ عينيّ مستسلمة لنداء الروح الذي لوّن الظلمة من خلف إطباقة جفنيّ باللهفة. ما لبث النور للحظات أن انشطر إلى نصفين بعمود من الظلام شعرت به يقترب، وبإحساس الخوف الذي تملّكني طيلة اللقاء فتحت عينيّ لأرى قامة بدت لي شاهقة

سدّت عليّ ما كان يتسرب من أشعة نور القمر. ارتدّ جسدي إلى الوراء مبتعدا عن "سلام" الذي هبّ بدوره واقفا كأنه يتصدى لهذه القامة. رغم الظلام الكثيف استطعت أن أرى ملامح رجل بشاربين كثّين برزا فوق الياشماغ الذي يلفّه حول وجهه...

قبل أن يحاول "سلام" الاستفهام عن الموقف باغته الرجل كأنما ليقطع عليه الطريق: "اِتفضّلوا ويّاية".

نظرتُ إلى "سلام" وقد استبدّ بي الرعب، أنتظر تفسيرا لما يحدث، هل هو حقيقة أم كابوس يخطف حلما صيفيا؟!

اكتسى وجهه بالجديّة مخاطبا الرجل: إلى أين؟

ردّ عليه بلهجة بدت ساخرة: ما تفعلانه هنا ممنوع، مسيء للآداب العامة، هيّا معي إلى مركز الشرطة.

رفعتُ يدي لأكتم شهقة ندّت عن شفتيّ، كأنها محاولة لإيقاف الروح قبل أن تغادر جسدي، كل ما بي كان يرتجف حتى فقدتُ قدرتي على الوقوف.

تمالك "سلام" نفسه وقال بتحدٍّ: لم نفعل شيئا، هي خطيبتي، لا يوجد ما يستدعي الذهاب إلى مركز الشرطة.

نفض الرجل يديه واحتدّت نبرة صوته: كُلّهم يقولون ذلك... ستُثبت في المركز إنْ كانت خطيبتك... أم...؟!

- لا يوجد قانون يمنع...

ـ لا تتحاذقْ... لستَ من يقرّر ذلك، هيّا معي...

تعثّرتُ بخطواتي وأنا أدلف سيارة البيك آب، بدفعة قوية من الرجل، اصطدمت يد "سلام" بكتفي وهو يأخذ مكانه قربي، التفتُّ نحوه ذاهلة، هل

يمكنه أن يجد تفسيرا لما يحدث؟ مدّ يده في الظلام مربّتا على يدي كأنه يحاول إزالة الخوف، سحبتُ يدي مرتعبة وأنا أنظر إلى رجلين في المقعد الأمامي. لم يكن الرجل الشبح لوحده، بل رافقه آخر يبدو أنه تولّى ركن السيارة خلف مجموعة أشجار قريبا من الشارع العام ليخفيها عن مرمى أبصار العشّاق!

وددْتُ لو استمرّت هذه الرحلة إلى آخر الزمان لئلّا أجد نفسي في مواجهة ما سيحدث بعدها.

مرّت أمام عينيّ صور أبي أمي إخوتي الثلاثة...

نظرتُ إلى ساعة يدي، لم أميّز عقاربها من شدة الظلام، لكنْ بمساعدة خيوط الضوء المتقطّعة التي تخترق زجاج السيارة كلّما اجتازت عمودا كهربائيّا عرفتُ أنها تقترب من السابعة مساء. لا يمكنني أن أتغيّب عن الدار أكثر من الساعة الثامنة مساء، بالكاد أقنعت أمي بأنّني قد أضطر للتأخير قليلا لكوني سأحضر حفلة عيد ميلاد صديقتي "رفل"، وفي العادة تستمرّ حفلات أعياد الميلاد حتى العاشرة ليلا أو أكثر. أمّا في الأيام العادية، فلا يُسمح لي أن أتاخر خارج الدار بعد السادسة مساء إلّا إذا كنت بصحبة أحد إخوتي. شعرتُ بغصّة تصعد من أعماقي، تعصر قلبي لتصل إلى بلعومي: ماذا إنْ ذهب أخي إلى دار "رفل" عند الثامنة مساء ليقلّني إلى دارنا؟ ستضطّر لقول الحقيقة عندئذ، فهي الصديقة الوحيدة التي تعرف علاقتي بـ"سلام". قبل أن أخرج في هذا الموعد اليتيم كنتُ قد رتّبت معها كلّ شيء، أوصلني أخي "نبيل" إلى دارها عند الرابعة مساء، لم أمكث فيها سوى عشر دقائق، اتّفقنا خلالها على ما ستقوله لأهلي في حال حدوث أي طارئ يدعو أمي للاتصال بأهل صديقتي التي ظلّت ترابط أمام الهاتف الأرضي طيلة المساء.

تُرى هل ما زالت مرابطة أمامه؟

لم يسبق لي أن التقيت برجال شرطة أو أمن، لا أعرف عنهم سوى أنهم جميعهم يرتدون ملابس خاكيّة ويقفون بمحاذاة سياراتهم الخضر في التقاطعات وأمام المباني الحكومية.

أمّا اللّذان أرافقهما الآن فهما يرتديان ملابس مدنية!

صفعتها هذه الفكرة...

هل هي معتقلة حقّا؟ إلى أين يأخذانها؟ مركز شرطة أم دائرة أمن؟

سمعتُ كثيرا عن دوائر الأمن التي يلتقط أفرادُها الشبابَ من الشوارع والمقاهي وأماكن عملهم دون موعد، بعضهم يختفي إلى الأبد، وبعضهم يعود بعد فترة بشعرٍ مشعث يسرح فيه القمل وملابس رثة، وأحيانا بعاهة مستديمة أو أمراض معدية.

لكنّ هؤلاء المعتقلين عادة ما يشتبه بهم في قضايا سياسية أو انتماء لجهات معارضة، أو يتمّ اعتقالهم بناءً على تصريح منهم أو حتى كلمة ضد القائد!

فما علاقتي بكل ذلك؟

هل يُعقل أن كل جريمتي هي أنّي ضُبطت في حالة حب أتعاطى قبلة؟!

هل من الممكن أنهما عضوان في عصابة لخطف الفتيات؟

حدث أن تناقل ناس إشاعات عن خطف فتيات، خلال السنة الماضية، وبيعهنّ لملاهٍ ليلية ودور دعارة.

ما حاجتهم بـ"سلام" إنْ كان الأمر كذلك؟

كان يمكنهم إلقاؤه في النهر أو ضربه حتى يُغمى عليه أو حتى قتله بأسلحتهم التي يختفي نصفها داخل بنطالاتهم بينما يظهر نصفها الأعلى فوق أحزمتهم.

لم أكن أقصد أن أكون شجاعة لكن الرعب الذي سيُصيب أمي ويُغضب أبي، الذي لا يرحم مطلقا، أطلق صوتي الذي بدا مرتجفا: إلى أين تأخذوننا؟ أنا لم أفعل شيئا. أرجوكم، سيقلق أهلي عليّ، أعيدوني إلى أهلي.

التفت الرجل الجالس في الأمام، قذف كلماته في وجهي بصوته الأجش ساخرا: لو أحسن أهلك تربيتك لما ضُبطت لوحدك مع شاب في بقعة مهجورة ليلا!

كمن ينتظر عقوبة الإعدام غير آمل بمعجزة لإنقاذ حياته، استسلمتُ لقدري وأنا أحتضن جسدي بذراعيّ كأني أحاول حمايته من الضرر الذي يتربّص به على مبعدة دقائق من الآن. كان "سلام" ينظر إليّ قلِقا، لم يتجرأ حتى على أن يُربّت على يدي أو كتفي هذه المرة، فما يشعر به من مرارة لم يكن مصدره خوفه على نفسه ومصيره على يد هؤلاء، بل وخزات ضميره التي تعاقبه على توريطي معه، خصوصا أنّني سبق أنْ سألته إنْ كان هذا ممنوعا، فطمأنني حينها، ربما لم يكن يعرف أنّ الحبّ ممنوع!

توقّفت السيارة أمام مركز للشرطة، في منطقة "البتاويّين"، قرأتُ اسمه وأنا أضع قدمي على الأسفلت: مركز شرطة السعدون.

كم أبعدُ الآن عن دارنا التي صارت في الطرف الآخر من المدينة؟!

استغلّ "سلام" انشغال الرجلين بالحديث إلى أحد عناصر الشرطة، الذين يحرسون باب المركز، فقذف كلمات متقطّعة في أُذني بسرعة: لا تقولي إنك تعرفينني، تعرّفتِ عليّ الأسبوع الماضي في المكتبة العامة فقط، تعرفين اسمي فقط وما بيننا ليس إلّا غلطة.

غلطة؟!

شعرتُ بأنّ بؤبؤيْ عينيّ سيطفران ويسقطان أمام قدميّ من شدة الغضب، أنا التي جئتُه مزهوّة بحلم، أُغتيل بسبب عجزه وجبنه، عوضاً عن أن يقاتل من أجلي وينقذني من هذا الموقف، يدقُّ بيديه مسامير لافتة تختصر كلّ ما فعلتُه من أجله بـ"غلطة"!

هل سيكفي الندم ليمحوَ فعلتي أم ستمحوها رصاصة من مسدس أخي أو أبي؟

كنت أشقّ طريقي بصعوبة وسط حشد النظرات الجائعة التي تستعرض تفاصيلي وأنا أجرجر قدميّ عبر الممر المؤدي إلى غرفة ضابط التحقيق الخفر، يتقدّمني الرجل الضخم ويتبعنا "سلام"، أشار إلينا بالتوقف أمام الغرفة، طرق الباب ثم دخل بعد لحظات.

لم يعد بمقدوري النظر صوب "سلام"، لم أعد حتى أرغب بذلك.

خرج الرجل الضخم من الغرفة وأشار إليّ أن أجلس مؤكداً بأن "السيد الضابط" سيعود بعد ساعة من الآن.

تعبت يدي لكثرة ما رفعتها لأدقق النظر في ساعتي، دقائق فقط تفصلني عن الساعة الثامنة، وها هو يقول إني أحتاج إلى ساعة أخرى ليراني الضابط.

انتهى كل شيء، سينكشف أمري وسأدفع حياتي ثمنا لـ"غلطة"، ليست حياتي فقط بل أيضا سمعة عائلتي التي ستدفع ثمن غلطتي باهظا.

مرّت الساعة بطيئة، أعقبَتها ساعة أخرى، لكن ضابط التحقيق لم يظهر، شعرت كأني متاع ثقيل أُلقيَ به خارج طائرة تتهاوى، لا أعلم بأيّ أرض سأسقط، بل الأرض كلها استدارت لتأخذ شكل ساعتي التي حدّقتُ فيها ما يقارب مئة مرة.

ها هي تتجاوز العاشرة بنصف ساعة، لم يتغير شيء سوى أن الأصوات قلّت، وتراجعت الأقدام التي كانت تقطع الممر جيئة وذهابا.

التفتُّ حولي، لم يكن سلام موجودا، أثار ذلك استغرابي، هل يعقل أن يكون كل هذا حلما أو كابوسا؟!

ليتني أستيقظ فلا أرى مركز الشرطة أو سلام.

زاد شعوري بالوحدة من قلقي، حتى الشرطي الذي كان يقف على باب ضابط التحقيق اختفى. نهضت أراقب المكان من حولي، هل تعمّدوا تركي لوحدي ليفسحوا لي مجالا للهرب؟! لم أكد أقدّم خطوة يمينا في محاولة لعبور الممر تجاه باب الخروج، حتى ظهر الشرطي الضخم... فوجئ كأنه يراني لأول مرة: ما الذي يبقيك هنا؟ ألمْ يرَكِ الضابط الخفر؟

ـأيّ ضابط تقصد؟

أشار إليّ أن أتبعه، سرت خلفه مستسلمة حتى نهاية الممر، أشار إليّ أن أتوقف أمام باب نقر عليه نقرتين ثم دخل، وخرج بعد دقائق مشيرا إليّ بالدخول.

كان السيد الضابط الخفر جالسا على سرير قرب مكتبه، وقد ارتدى بدلة رياضية، نظر إليّ متفحّصا من أسفل قدمي حتى قمة رأسي: ما اسمك؟

ـ آمنة جابر.

- ما قضيّتك؟

نظرت إلى الشرطي الضخم الذي أحضرني إلى مركز الشرطة أستفهم منه عن تهمتي، سارع إلى الإجابة بدلاً عنّي: سيدي، إساءة للآداب العامة.

تلقّيت العبارة كصفعة...

ابتسم الضابط ساخرا وتبادل نظرة غريبة مع شرطيّه: كمْ عمرك؟

ـ سبعة عشر عاما.

اقترب مني الشرطي الضخم، همس بأذني كلمات بصوت أشبه بالفحيح تعمّد أن يُسمِعها لضابطه: "مبيّن السهرة اليوم راح تحلة"!

ضحك الضابط محذّرا إيّاه وهو ينهض متثاقلا ليجلس خلف المكتب، بحث بين الأوراق عن ورقة ثم التقط قلما وبدأ يدون أقوالي، قال معلّقا: "لكْ هايْ قاصرْ، بعدْ منعرفْ شكو وراهة"!

أعادني الضخم إلى الممر، أعلموني بأنهم سيضعونني في موقف الاحتجاز حتى الصباح ليجري عرضي على قاضي التحقيق...

يبدو أنهم انشغلوا بسلام ونسوا أمري! لكن أين أخذوه؟ لماذا لم أشعر باختفائه؟

لكن، أووووه، هل يعقل أن أفكر به الآن وأنا من سيقضي ليلته في الحجز مع السجينات؟

ترى ماذا يفعل أهلي الآن؟

في نهاية الممر، الذي يفضي إلى ممر آخر ضيق، توقف الشرطي الضخم عند نهايته، فتح باباً حديديا بمفتاح ضمن سلسلة مفاتيح ضخمة كان يحملها، ألقاني هناك وأقفله خلفي.

كانت الغرفة مظلمة تماما إلّا من خيوط ضوء تطلّ من الممر.

حشرت نفسي بين مجموعة من النساء تكوّمت أجسادهنّ على الأرضية كأعمدة متوازية أو متقاطعة، رمقتْني بعضهن بعيون نصف مفتوحة، منهن من عادت إلى نومها، بينما رفعت أُخريات رؤوسهن عن الوسائد لمشاهدة القادمة الجديدة، فيما اعتدلت إحداهن في جلستها ومدّت يدها لتلمس فخذي أثناء مروري

بالقرب منها، فقفزتُ مرتعبة وندّت عنّي صرخة أثارت ضحكات البعض واستياء البعض الآخر من فعل الضجة التي أقلقت نومهنّ.

جلستُ في ركن من الغرفة وأسندتُ ظهري إلى الجدار، ولأول مرة انهمرت دموعي كبئر تدفّقت فجأة بعد عملية حفر، حتى تبلّل قميصي.

هل سيأتي الغد وماذا سيحمل معه؟

بالأمس لم أستطع النوم لهفةً بانتظار غد مختلف كان يحبل بموعدي الأول، وها هو يومي يلدُ ليلة لقيطة أجلس خلالها على أرضية رطبة في غرفة احتجاز مع نساء قد يتجرّأن على أكلي حية إن أنا نطقت، لا أملك إلّا أن أنتظر الغد وكُلّي أمل بأن يعثر عليّ سجّاني جثة هامدة.

ـ ألم تتصلي بالبرمجة؟

- لم لا تفعل أنت؟

ـ لا أعرف ما أقوله لهم! غادرني رأسي وعاد إليّ! تتكرّر هذه الحالة كثيرا في الأيام الأخيرة!

- رأسك في مكانه، فقط الذاكرة تغادر، دعني، أريد أن أنام.

ـ كيف عرفتِ ذلك؟ ها؟ كيف تعرفين بأن الذاكرة فقط هي من تغادر؟ هل تقصدين بأنهم يخدعوننا؟ انظري في المرآة، ستشاهدين أنّك بلا رأس!

- لا توجد مرآة، هل نسيت أنّهم منعوا استخدام المرايا كي لا نرى الحقيقة؟

ـ أية حقيقة؟ ما الذي تخفينه عني يا آمنة؟

- "كافِي يا رجّال"، دعني أنام، لا جدوى من الأسئلة.

ـ مضت نصف ساعة وأنت تجلسين على الفراش ولم تنامي، أنت لا تنامين في النهار، بماذا كنتِ تفكرين؟

- لا شيء.

ـ بل بأشياء كثيرة، أعرفك حين تجلسين صامتة. لا بدّ أن شيئا جللاً يجول في رأسك! ألن تقولي ما الذي يشغلك؟

- شخيرك، شخيرك يمنعني من النوم، وأصوات غريبة تُطلقها وأنت تُغرغر.

ـ ليست المرة الأولى التي أشخر فيها، بل هي المرة الأولى التي يمنعك فيها شخيري من النوم!

- ربما آن الأوان لنضع حدّا لكلّ هذا.

ـ ماذا تقصدين؟

- أنت ميّت يا رجل، الا تدرك؟ سنوات مرّت وأنت على هذه الحال! تذهب إلى عملك وتعود لتنام، ثم تستقيظ لتنام، ألا تدرك أن الأشياء تدور حولك؟

ـ وهل ما زالت تدور حقّا؟ أية أشياء؟ توقّف كلّ شيء منذ زمن طويل، أنت فقط من يدور في ذاكرة متهرئة، تحاولين بعث الماضي ولا تريدين أن تصدقي بأن الموتى لا يُبعثون.

- ذاكرتي حية، لذا ما زلتُ حية، ويجب أن أفعل شيئا، لن أستمرّ بقبول هذا، أن أظل سجينة البرمجة، لن أسمح لهم بأن يأخذوا رأسي متى شاؤوا ليعبثوا به بأصابعهم القذرة، لتتجوّل فيه أعينهم اللئيمة كما يتفحص الجنود غنائم الحرب.

ـ قبل قليل قلتِ إنك تخشين من أن يسجّلوا علينا مخالفة، أمْ أن رأسي فقط هو من سيسبب لكم المشاكل، كيف وهو فارغ تماما!

- كيف تذكّرتَ ما قلتَه إن كنتَ بلا رأس، ولا ذاكرة، أنت تخدعني يا رجل، أين تخبئ رأسك؟

ـ لا أخبيء شيئا، كل ما هنالك أن الذاكرة تتسرّب أحيانا، هنالك عطب ما في رأسي، أحيانا يغيب تماما وأحيانا يعود، المهم أنني تذكّرت، وعليك أن تراقبي لسانك.

- معك حق. يبدو أنني تهوّرتُ قليلا. أحيانا يصل الإنسان حدّ الملل فتتسرب إليه أفكار غريبة، أفكار ثورية. وهذا لا يجوز، نعم لا يجوز، فنحن لدينا أولاد. ماذا لو أخذوا أولادنا؟

ـ فليأخذوهم أنا لا أتذكّر حتى متى أنجبناهم.

- ربما لا نتذكر حتى أننا تزوجنا في يوم ما.

ـ ما نفع ذلك؟ هنالك أشياء بديهية لا تستحق أن نشغل الذاكرة بها. الزواج أحدها.

هو يدرك أنها لا تحبّه، لذا يتعمّد إيلامها.

منذ اليوم الأول لزواجهما، تحوّل كل شيء إلى بديهي، كأنها كانت هنا طيلة حياتها، لم تُشعِره لحظتها بأنها تبدأ معه حياة جديدة، بل كانت تتعامل مع كل شيء كواقع فُرِض عليها، فلم تعد تفكّر في أن تهجره، رغم أن الفكرة راودتها مرارا في السنوات الأولى لزواجهما، لكنّها استسلمت لواقع أنها أُمٌّ لطفلين، كانت مصرة ألّا تتبعهما بثالث لولا إلحاحه بضرورة إنجاب أخ لابنه، كأنه كان متيقّنا من أنها ستنجب له ذكرا، وكم كانت صدمته كبيرة حين أنجبت له أنثى هي ابنتها الصغرى.

لكنّه أحبّها لحظة وقعت عليها عيناه.

كرة لحم مرصوصة في لفافة بيضاء، لا يظهر منها إلّا وجه مدوّر يشعّ بياضا مختلطا بحمرة توزّعت على الخدين والشفتين، أطلق عليها "برتقالة" بالرغم من أن البرتقالة لا تمتّ بصلة إلى الأبيض والأحمر، لكنّه كان مصرّا على أنها تشعّ كبرتقالة.

زاد ولعه بها لكون "كصّتها خير" حين هبطت الأسعار فجأة إثر أخبار عن فك الحصار، فتباشرَ الناس بـ"النزول"، وتدفّقت البضائع من دول الجوار، كما هبطت

أسعار الذهب، وبما أنها لم تكن تملك مالاً، لم تفكر بشراء الذهب، ولم تكن أسعاره تعنيها، بل كانت سعيدة ككل الناس بهبوط الأسعار الذي مكّنها من التسوق وإشباع جوع طفليها اللذين تصحّرت أحداقهما من كثرة تأمل العصائر والحلويات التي لم تستطع توفيرها لهم في زمن الحصار.

لكن الفرحة جفّت تدريجيّا مع ارتفاع الأسعار ثانية، حين ظهر أن كل تلك الأخبار لم تكن إلّا وهماً آخر يُضاف إلى سلسلة أخبار وهمية أمضى الناس ثلاثة عشر عاما بترقّب مثيلاتها رغم تسرب اليأس إلى كل تفاصيل الحياة، ثم إن الأمر لم يتوقّف عن هذا الحد، ففرحة الناس بالحَمْل الكاذب، كان يجب أن يلجمها إجراء يُثبت عقم الأمل، كما يُثبت التصوير الشعاعي احتواء الرحم على الجنين أو خلوّه منه، فكانت البرمجة هي الإجراء الذي ابتدعوه لإخصاء الأمل إلى الأبد، فنشأت "البرتقالة" في ظل البرمجة وهي تظنّ بألّا حياة قبلها.

8

بسببه كرهتُ البرتقال، قشرتُه سميكة، وحين أحاول تقشيره بيديّ الصغيرتين، تؤلمني أظافري، كما تتململ أختي من فعل ذلك لأجلي، ثم إنّ له طعماً حامضا، ربما لهذا السبب يدعوني والدي بالبرتقالة، لأنه لا يحبني، لو كان يحبني حقّا، لأطلق عليّ "التفاحه"، التفاحة حمراء، وأحيانا صفراء، أنا أحب الحمراء أكثر رغم أني لم أتذوّقها سوى مرة واحدة حين اصطحبتني أمي إلى السوق، وتوقّفتُ بعناد عند بائع التفاح وبكيت بإلحاح حتى وافقتْ على شراء تفاحة واحدة لي وأوصتني أن أكتم الخبر عن أبي وإخوتي! لا أعرف لماذا تطلب مني أن أكذب، رغم أنها توبّخني إن كذبتُ، هكذا هم الكبار، يريدون أن نفعل كل ما يأمروننا به حتى إن كان خطأ. بالطبع أنا أسمع كلام "ماما"، لكنّي لم أستطع إخفاء الأمر عن أخي، كنت أريد أن أعاقبه على ضربِه لي كلّما غابت أمي عن عينيه، أردت له أن يشعر بالألم لأنه لم يحصل على تفاحة وسيعرف أيضا أن "ماما" تحبّني أكثر منه. صحيح أنني تلقّيت قرصة من أمي لبوحي بالسر الذي ائتمنتني عليه، لكني شعرت بالسعادة وأنا أرى أخي يصرخ طلباً لموزة، ذلك أنه لا يحب التفاح كثيرا، لذا أصرّ على أن تعدل أمي بيني وبينه وتسمح له بشراء موزة. لم أكن أعلم أن الموز أخطر من التفاح، فإنْ أكذب بسبب تفاحة وأُعاقب بقرصة لهوَ أكثر رحمة من الكذب لأجل موزة ونيل عقاب لا يرحم. بعد إلحاح أخي وبكائه، أعطته أمي ربع دينار لشراء موزة من محل الخضر والفواكه القريب من بيتنا. ما إن عاد بعد دقائق يتبختر وهو يحمل موزته ويزيل قشورها أمام أنظاري ليثير غيرتي، حتى خرج أبي من غرفته في طريقه إلى الحمام. لم أنتبه لخروج أبي، لكن اللعاب الذي تخمّر تحت لساني أثار شهيّتي للحصول ولو على قضمة، توسّلتُ أخي، وكعادته أذلّني وسخر مني، فبكيت، ولولا

بكائي لما عرف أبي بشأن الموزة والتفاحة. لا أتذكّر الكثير، أصوات كثيرة فقط، أبي يضرب أخي وأمي تصرخ مدافعة وهي تُبعد أخي عن مرمى يد أبي، أمي تسقط على الأرض، ركلها أبي، بكاء، بكاء... الجميع يبكي. ألم أقل لكم إن الموز أخطر من التفاح؟ حتى أني صرت أغطّي عينيّ بيدي كلما مررت بقرب بائع الفواكه في طريقي إلى المدرسة، لا أريد أن تسقط أمي على الأرض ويركلها أبي ثانية بسبب تفاحة.

- أنا مريض، لا أستطيع اللعب معك.

ـ تكذب، رأيتك تلعب قبل قليل مع ابن الجيران.

- لم أكن ألعب، كنت أسأله عن امتحان التأريخ، غداً لدينا امتحان، أبي لم يساعدني كثيرا حينما كان بلا رأس، وعندما استعاده ذهب إلى النوم كعادته...

ـ أمي أيضا نامت مبكرة على غير العادة، أنا أشعر بالضجر...

- لديك لعبتك، بل ألعابك الكثيرة!

ـ كُلّها محطّمة!

- لأنك تحطّمينها بقساوتك!

ـ لستُ قاسية، لا تؤنّبني، هي فقط تتكسّر بسرعة، أمي تشتري لي ألعابا رخيصة، صديقتي لديها لعبة حقيقية من المطاط وألعابي جميعها من البلاستك، خفيفة سريعة الكسر...

- لأن الألعاب غالية كما تقول ماما، أنت محظوظة مع ذلك، أنا أتوسّل منذ سنة للحصول على كرة ولم أفلح، حاولت أمي أن تقنعني بكرة من البلاستك، تنبعج مع أوّل ركلة قدم لتحطّ على مبعدة أمتار مني بكل غباء، تظن أمي أنها تستطيع خداعي بهذه الكره الغبية!

ـ أنفك يسيل أيّها الغبي!

شعر أخوها بالحرج، فرفع يداً ليمسح أنفه بكُمّ قميصه دون وعي منه، نظر إلى الكُمّ الذي توزّع الرشح عليه خطوطا ترابية اللون يعلم جيّدا أنّها ستزعج أمّه، لكنّه ذنبها أيضا فهي لا توفّر له مناديل ورقية رغم علمها بأنه مُصاب بالرشح، صحيح أنها تُخيط له بعض المناديل من القماش الخفيف، وتغسلها كلما اسودّ لونها، إلّا أن مناديل القماش تسبّبت في احمرار أنفه، فهما تفنّنت أُمّه في خياطتها وغسلها تظلّ خشنة الملمس أو هي تخشوشن تدريجيّا بعد أن تتشبّع بالمخاط ومساحيق الغسيل.

في إحدى المرات، رغب بأنْ يخطف قطعة من منديل ورقي ورديّ اللون تستخدمه معلمته، ليس لتنظيف أنفها، بل لمسح السبّورة أحيانا من الطباشير. لم يستطع كتم فضوله ورغبته باقتناء أحد مناديلها التي تحتضن نصفها يدها الرقيقة بينما يتماوج النصف الآخر مع حركة يدها كأنه شراع سفينة توشك على الانطلاق في رحلة بعيدة في البحر. خانه صبره أكثر فطلب إليها أن يقوم هو بمسح السبّورة علّه يحظى بملمس هذا المنديل الرقيق مرة أو ربما يتحسّس رائحة يدها. ابتسمت برقة، دعتْه للقيام بالمهمة، سلّمته المنديل بحركة رقيقة نال منها إحساسا دافئا نابعا من طرف إصبعها الذي ينتهي بإظفر ملوّن بالوردي، لم يفهم حينها مبعث هذا الدفء الذي تسلّل في أوردته وسرى في شرايينه حتى نزل إلى ما بين ساقيه. ظلّ يرنو إليها ساهما حتى نهرته برقّة وأمرته بأنْ يبدأ العمل، كثور جامح ماجت يده وهاجت لتمحو آخر أثر للطباشير مخدّرا بعطر المنديل الورقي المختلط بعطر يدها ورذاذ الطباشير. لم يترك مكانه أمام السبّورة أملاً بأنْ تسمح له المعلمة بالبقاء في هذه الزاوية لينفّذ أوامرها بمسح السبّورة من وقت لآخر، رغم قلقه من سخرية زملائه المحتملة لكونه جعل من نفسه خادم المعلمة المتملّق الذي يقف طوع أمرها، لكن لا يهم، فلم يسبق له أن شعر بمثل هذا الإحساس النابع من ملمس نعومة يديها، فقد تعوّد خشونة يد

والدته وهي تدعك خدّيه محاولة إيقاظه صباحا، وألِفَ منظر تشقّق أطراف أصابعها واصطباغها باللون الأسود، لم يرَ استطالة أظافرها يوما.

ذات مرة، لمح أخته تطلي أظافرها بلون وردي محمر عندما كان يتلصّص عليها من ثقب الباب، كانت المرة الأولى التي يشمّ فيها رائحة صبغ الأظافر التي لم يسبق له ان تنشّقها، ولظنّه أنها تعبث بشيء ضار، طار ليخبر أُمه بأنها تلوّث يدها بشيء غريب قد يؤذيها، فطارت الأم بدورها لتنقضّ على ابنة الأربعة عشر عاما التي كانت تلوّن أظافرها باللون الوردي المحمر، ولم يكن لون طلاء الاظافر هو السبب لما تعرّضت له من ضرب، بل كيف استطاعت شراء طلاء الأظافر في زمن الحصار!

9

ادّخرتُ مصروفي لمدة شهر كي أقتنيه، فهو يحب المرأة التي تطلي أظافرها، رغم أن أمي لا توافق على تخصيص مصروف يومي لي بحجة أني تركت المدرسة، ولست بحاجة إلى مصروف شخصي، فهي تشتري لي ما أحتاجه ولو كان ذلك بصعوبة. لكنّي أتحايل عليها بأنّ لي مصروفاتي الخاصة فأنا فتاة شابة الآن وأحتاج إلى حفاظات نسائية مثلا، وقد أحتاج إلى دبابيس الشعر وغيرها من التفاصيل الصغيرة التي تنسى شراءها. هكذا أستطيع جمع مبالغ بسيطة من المال لشراء طلاء أظافر وأحمر خدود وبعض المساحيق التي أتزيّن بها لأجله، فما حاجتي للحفاظات النسائية، طالما لا يراها أحد! بإمكاني استعمال قطع القماش وغسلها رغم أني أكره رائحة الدم المتخثّر. مع ذلك ثارت ثائرة أمي حين علمت بأني اشتريت طلاء أظافر في زمن الحصار، فثمنه يكفي لشراء بضعة أرغفة خبز. لا أريد خبزاً، أريد أن أبدو جميلة، أن يرى حبيبي جمال يديّ الناصعتي البياض، وأن يثيره لون طلائهما فيسارع للثمهما كما يحدث في الأفلام، رغم أني لم أكن أدرك معنى أن يلمس يدي أو أن يقبّلها حتى فعل ذلك. ما زلت أشعر بتلك الموجة الغريبة، تيار كهربائي يسري في يدي ليمتدّ إلى كل تفاصيل جسدي، هل السر يكمن في ملمس شفتيه، أم في ضعفي أنا؟

كان ذلك أثناء لقائنا الأول على سطح الدار، لم يمنعني السياج الفاصل بين سطحي دارينا من أن أستند بيدي على حافته. رصفتُ بعض الطابوق وتسلّقته لأتمكّن من شبك يديّ على الحافة كي يرى لون أظافري المطليّة بالأحمر. فعلاً حدث ما خططّتُ له، لم تفارق عيناه يدي حتى زحفت يده بخفّة لتفكّ اشتباك كفّي. وقبل أن تنزلق يدي من حافة السياج، أوقفَها بخفّة ليجذبها ناحية فمه ويقبّل الأصابع برقّة وشغف.

- لكن هذا غير موجود في ذاكرة أمي!
_ ماذا تقصدين؟
- ما فعله ابن الجيران هو أنه قذف بورقة مطوية، عثرت عليها أمي في اليوم التالي حين كانت تنشر الملابس، وجدت فيها قصيدة شعر لنزار قباني، هل تعرف من هو نزار قباني؟
_ لا، دعينا منه ومن أُمك الآن، سأعبر السياج لأقترب منك أكثر...
- لا... لا تفعل.

استطعت تحرير يدي منه بخفّة، رحت أجري نحو باب السطح، وقبل أن أنزل التفتُّ إليه، كان ما يزال يقف هناك يرميني بابتسامة عذبة، بادلته الابتسامة بدوري ونزلت السلّم مسرعة قبل أن يراني أحد.

بعد ذلك اليوم، صار سطح الدار مَسكناً لي، أتسلّق السلّم راكضة عند الساعة الواحدة ظهراً بعد عودته من المدرسة. في هذه الساعة، كان الأمر مُتاحا جدّا، فأبي لن يعود من عمله قبل الواحدة والنصف أو الثانية ظهراً، بينما تعود أمي بحدود الساعة الثالثة، لكن الأمر يصبح أكثر تعقيدا حين نقرّرُ اللقاء مساء أو عند الغروب، فأخي الصغير غالباً ما يصعد إلى سطح الدار للّعب، وأحيانا تفعل أمي حين يحدث عطب ما في قابس التيار الكهربائي وتشتد الحرارة فتصعد لتثبيته، أو حين ترغب بقليل من الوحدة بعيداً عن نقيق أبي.

قبل يوم من ذكرى ميلادي، اتفقنا على اللقاء مساء اليوم التالي، قال لي إنه يريد أن يحتفل بهذا اليوم معي على مشهد غروب الشمس لنشهد انحسار الضوء عوضاً عن أن نشعل شمعة. أعجبني ذلك، فهو يفكر أحيانا بأشياء تُشبه تلك التي في مخيّلة أمي أيام شبابها، لذا قررّت أن أرتدي ثوبي الوحيد المخصص للأعياد والمناسبات، وكي لا يلاحظ أحد من أهلي ذلك ويتساءل عن سبب ارتدائي للثوب، طويته تحت قميصي وصعدت السلّم، ثم ارتديته خلف باب السطح. لم

أكن أعلم بأن أختي الصغرى كانت تراقب المشهد، وهي معروفة بتطفّلها وسرعتها في نقل كل أخبارنا إلى أمي.

أهداني وردة حمراء، قطفها من حديقة دارهم، وضع تحتها علبة شوكولاته مغلّفة بورق فضي، كانت هي هدية عيد ميلادي الثمينة. لم يكتف بتقبيل يدي هذه المرة، بل مرّر شفتيه على ذراعي ليصل إلى كتفي وعنقي، تراجعت قليلا بعد أن سرتْ رعشة اعتدتها في أطراف جسدي وأسفل بطني. أدرت ظهري وابتعدت قليلا بحجة مراقبة قرص الشمس الذي كان يغوص في الأفق، أمّا حقيقة الأمر، فإني كنت أحاول التملص من ذوباني بين شفتيه. ما كدت أستردّ أنفاسي، حتى شعرت بيديه تطوّقان خصري من الخلف، قفزت مذعورة واستدرت بكل جسدي، وقبل أن أتساءل كيف تجرأ على عبور السياج، خطف قبلة من شفتيّ. أردت ردع جنونه، لكنني لفظت آخر أنفاس مقاومتي حين تلقّف لسانه شفتي السفلى.

- اخلعي فستانك، أريد أن أرى جسدك.

ـ هل جُننت؟ ما زلت صغيرة على هذا.

- أنا أكبر منك، وأقول لك بأن الحب لا يعرف لغة الأعمار والسنين، أنا أحبك.

ـ أنا أيضا أحبك.

- إذاً امنحيني جسدك.

ـ ما الذي تقوله؟ لم يحدث شيء كهذا حتى في ذاكرة أمي!

- كيف لك أن تعلمي ما دار في ذاكرتها؟

ـ سرقتُها في إحدى المرات. علمتُ بأن الحب كان أمرا آخر غير الذي تطلبه. كان حبيبها يرسل لها الأشعار، يدسّ لها الرسائل في كتاب مدرسي، يغنّي لها عبر الهاتف، يغازلها بكلام ساحر، يسهر الليالي ويتأرق، هي تسهر أيضا، كانت

تسهر الليالي لأجله، يتبادلان العهود والوعود. أما أنت فلم تعدني بشيء حتى الآن!

- يبدو أنك دخلت مناطق محظورة. أنا لم أسرق ذاكرة أحد، بل التزمت بساعات البرمجة، لذا لا أفهم عمَّ تتحدثين. لكنّي أعرف أن ما أشعر به نحوك هو ما يسمى بالحب، والحب عطش، لا تنكري أنك أيضا عطشى.

كان عليها أن تخبره بالأمر، لن تتكفّل بحلّ المسألة لوحدها، كما تفعل دائما. يجب أن يعلم فهذا الأمر ليس بالهين، أن تجد ابنتها في حضن شاب على سطح دارهم، يعني أن الابنة في خطر، وقد تنزلق إلى أمر أكبر! فمن سيتكفّل بحمايتها عندئذ؟ بل كيف ستحمي هي نفسها من لومه لها وتأنيبه إياها، ها هو يعرف الآن.

_ ألن توقف ابنتك؟

- وإنْ حاولت، لا يمكنني إيقاف التيار، ألم تفعلي شيئا مماثلا في سنّها؟

كعادته، لا تمر مناسبة دون أن ينكأ الجرح، دون أن يذكّرها بالجرم الذي ارتكبته بحقّ أهلها وحقّه حين تزوّجته مرغمة لتخفي هي وأهلها فضيحة محتملة.

_ لكن الزمن تغيّر، زمننا كان مختلفا.

- أكذوبة، الزمن لا يتغيّر، في كل زمان يبكي الإنسان زمنا مضى ولو تعلّم أن يبكي زمنه الحاضر الذي يتسرب أمام عينيه عوضا عن البكاء على زمن ماضٍ، لأدرك قيمة الحياة.

_ ها انت ذا تتذكّر. تدرك وتفكر وتتحدث كرجل حكيم لكنك تتصرف كأنك فاقد للذاكرة، كأن خزينك منها نضب ولم تحاول شحنه خلال ساعات البرمجة. يبدو أنك تفعل ذلك في الخفاء وتتظاهر أمامي بأنك بلا ذاكرة، فقط لكي تحمّلني عبء المسؤولية وتُريح بالك.

- لا أفعل شيئا في الخفاء، اصمتي يا أمرأة لئلا يسمعوك، تذكّري أن كل ما تقولينه سيختزن في الذاكرة وسيرونه حينما يستعيدون رأسي، وعوضاً عن أن يعيدوه لي، سيصهرونه في الفرن فأظلّ بلا رأس مدى الحياة التي لن تطول كثيرا بعد ذلك.

ـ لم يعد مهمّا، ليأخذوا رؤوسنا، ليسحقوها في أفرانهم، فنحن لم نعرف يوما استخدامها بالشكل الصحيح.

10

ـ الشاي.

أيقظه صوت ارتطام القدح بالمنضدة...

هل غفا فعلاً؟

ارتبك وهو يحاول أن يُبعد نظراته عن العيون الجليدية التي شعر بأنها تترصّده من أعلى ككشّاف ضوء في ملعب، تظاهر بالاهتمام وهو يمدّ يدا لتلقّي حصّته من الشاي. كان الرقيب المسؤول عن توزيع الشاي يقف خلفه تماما، لا بدّ أنه قدّم الشاي لزميله الذي يجلس خلفه وسيحين دوره الآن. حمدَ الله أن الرقيب أحدث صوتا أثناء وضع قدح الشاي على مكتب زميله وأنه لم يكن الأول في استلام حصّته من الشاي وإلّا افتضح أمره وعرفوا بأنه كان ينام أثناء العمل. رفع رأسه إلى أعلى، نظر طويلا ثم التفت إلى اليمين حيث يقع باب المكتب لكنّه لم يستطع أن يرصد موضع الكاميرا التي أحكموا إخفاءها في زاوية ما.

ماذا لو أن الكاميرا رصدت إغفاءته القصيرة؟ أيّ عذر قد ينفع مع المدير المسؤول الذي لا يعرف الرحمة؟ هل سيدفع رأسه ثمن إغفاءة؟ أم سيكتفون بسجن تأديبي لأسبوع، أو ربما سيعفونه من عمله المهم؟

ـ الشاي.

وضع الرقيب كأس الشاي على مكتبه.

ابتسم ليخفي قلقه، لم يحاول أن يرفع نظره أبعد من مستوى البنطال الخاكي الذي كان يوازي مسند كرسيّه خشية أن يلمح الآخر بقايا النعاس في عينيه.

ارتفع وجيب قلبه بانتظار رحيل القدمين الخاكيتين، فأيّ تأخير عن المعتاد يعني أنّ أمرا جَللا سيحدث. ثبّت نظره على الشاشة العريضة أمامه متظاهرا بأنه منشغل بالعمل...

ما زالت القدمان الخاكيتان مسمّرتين في مكانهما، ولكثرة ما استرق النظر إليهما حفظ شكل البسطال واللطخات اللماعة المبعثرة على مقدّمته.

كيف يمكن تلميع بسطال؟ هل استخدم طلاء الأحذية المعتاد؟ ربما زوجته هي من قام بذلك؟

شعر بانحناءة الجسد وبيدٍ تمتدّ نحو الأرضية بمحاذاة الكرسي، من المؤكّد أن الرقيب يحاول

أن ينحني ليدقّق النظر في عينيه ليضبطه متلبّسا بالنعاس.

إن اللحظات التي نتوقّع فيها الأسوأ لهي أسوأ بحد ذاتها من النتائج.

شعر بالنبض يتصاعد ليتخلّل كل أطراف جسده وصولا لقدميه، فلم يعد قلبه يحتمل توزيعه...

لو ينطق الرقيب فقط بما لديه وتنتهي هذه اللحظات المريعة!

لكنّها انتهت بما لم يتوقّعه...

قبضت يد الرقيب على قلم كان يختبئ أسفل قدميه تحت المنضده، ناوله القلم دون أن ينبس بكلمة ورحل، كأنّه يؤنّبه على الإهمال في الحفاظ على أموال الدولة التي تعيش حالة حصار.

لا بأس، فهذا الاهمال غير المتعمد يحدث كثيرا في ظلّ ضغط العمل ولا يلقى بالا من قبل المسؤولين، عدا بضعة توجيهات بين فترة وأخرى حول ضرورة الحفاظ على التجهيزات.

على أيّ حال، لم يُتلف القلم أو يلقى في سلّة المهملات، بل سقط سهوا، كالعديد من الأشياء التي تسقط سهوا دون أن ينتبه أحد.

تنفّس الصعداء وهو يصغي إلى قدميّ الرقيب تبتعدان ليختتم رحلته اليومية بصوت إغلاق باب المكتب.

شعر بأن كل حواسه استوفزت وغادر جفنيه النعاس، ربما كان بحاجة إلى صدمة الخوف التي تلقّاها ليرتفع لديه الأدرينالين ويستعيد تركيزه.

سعل زميله الذي كان يجلس في المكتب خلفه تماما، جفل وارتجف قلبه كأنه ما زال أسير دائرة الخوف. نظر إلى الساعة في يده، الثامنة والربع صباحا، لم يتبقّ الكثير من الوقت قبل أن تنتهي مناوبَته، ما هي إلّا نصف ساعة ليستبدل مكانه مع زميل آخر ويغادر في إجازة لأربع وعشرين ساعة. انتابته لسعة شوق إلى فراشه الدافئ والشاي الذي تعدّه أمه وفكّر بأن عليه أن ينهي تقريره لهذه الليلة ليتمكن من المغادرة في التاسعة تماما. قبض على القلم وسحب مجموعة أوراق أمامه، بدأ فعلا بكتابة التقرير الذي لا يضمّ الكثير، فقط بضع ملاحظات عن المواطن (235) الذي يقع ضمن نطاق مسؤوليته، أعاد قراءة ما دوّنه ثانية:

في الفترة التي استعاد فيها المواطن (235) رأسه، تساءل عن عدد السنوات التي مرّت على رحيل ابنه. كان قد نسي أنّ لديه ابنا، لكنّ نتائج الفحوصات التي تسلّمها في اليوم السابق حين رافقه ابن أخيه إلى الطبيب، حرّكت في داخله التساؤلات عن مصير ابنه الذي غادر منذ اثني عشر عاما. كم مرة بعد أخرى سيرافقه ابن أخيه إلى الطبيب؟ هو مصاب بتكلّس في عموده الفقري ويحتاج إلى عملية وجلسات كثيرة من العلاج الطبيعي كما يحتاج أكثر إلى ابن يرافقه ليسند ظهره الذي انحنى حين غادره هذا الابن الوحيد في العام 1991. لو كان يعلم أنه سيغادر لما أنجبه، فما فائدة أن نفني أعمارنا في استثمارٍ فاشل؟

انتبه العميل (س) إلى أن هذه المعلومات ليست جديدة، وأن خبر اكتشاف المواطن (235) لمرضه ليست إضافة خطيرة، بل الحلقة الأهم هي الابن المتهم بانتماء سياسي. صحيحٌ لم ترِد أية معلومات في ذاكرة الأب عن تواصله مع ابنه، لكن عليه أن يترك ملاحظة لزميله الذي سيتسلّم المناوبة حول احتمالية استذكار الأب لكل ما يتعلق برحيل الابن. فحتى الآن يثبت التقرير أن الأب مستاء من مغادرة ابنه، ليظل مستاء خيرٌ له من أن يتذكّر السبب الذي دفع ابنه إلى مغادرة البلد وهو الخوف من الاعتقال والتغييب وربما الإعدام!

ارتعب من الجملة الأخيرة وشطبها فورا، فليس لديه الحق بأن يستنتج أو يتّهم السلطة بمثل هذه الممارسات بل اكتفى بوضع كلمة (انتهى) بعد جملة "ما يتعلق برحيل الابن."

قبل أن يختتم تقريره، انتقل إلى ملاحظاته حول المواطنة (247)، شطب كل ملاحظاته التي اختزنها في ذاكرته حول هذه المواطنة التي يعرفها حقّ المعرفة واكتفى بذكر بعض الملاحظات حول زوجها المواطن (248) الذي يعاني من خلخلة في البرمجة مُسقطا ذكريات الزوج عن حرب غير عادلة خسر فيها صديقا.

11

لطالما ظننتُ أنني أستخدم رأسي بالشكل الصحيح...

أكملت دراستي بجد واجتهاد، قرأت كل ما وقعت عليه عيناي من كتب التأريخ والشعر، رسمت الكثير من اللوحات.

نعمْ، كنت رسّاما موهوبا، لكن اللون الوحيد الذي رسم طريق بدايتي كان الأحمر، فأهملت الرسم وانشغلت بتضميد جراح رفاقي.

تعلّمت العزف على الكمان حين كنت في المرحلة المتوسطة، ورغم معارضة أبي الشديدة لذلك، لم أتوقّف، حتى إنني شاركت في حفلات المدرسة وبعض المناسبات الرسمية، لكن حزن نغمات الكمان لم يعد يشجيني حين أنجب صوت الرصاص حزنا أكبر.

مع ذلك لم أستسلم، بل قرّرت أن أغرس ما تعلّمته في أذهان تلاميذي حين أصبحت مدرّسا للتأريخ، لكنّي أدركت بعد حين أن أذهانهم تبلّدت لكثرة ما حفظته من أغاني الحرب وما تجرّعتْه من اليتم والفاقة.

مرّت السنوات، وأنا اكرّر الكلام نفسه عن التأريخين الأموي والعباسي والتأريخ الحديث.

نتغيّر وجوه الصغار ولا يتغيّر التأريخ في المناهج الدراسية!

أظنّ أن هذا هو مكانه الحقيقي: المناهج الدراسية، حيث كبُر وشاخ هناك ولم يعد قابلا للتغيير، فالتأريخ يصنعه الإنسان، وطالما يعجز الإنسان عن صناعة قدره، سيظل التأريخ ثابتا، عجوزا، بل مُقعدا. فكل ما فعلوه أنهم أضافوا إليه نصرا مزيّفا وهزائم مزوّقة، أعداء مدحورين بالكلمات وأبطالا مزهوّين

بالأناشيد. لذا ما عدت أحتاج إلى مراجعة المنهج قبل الدرس، فما أقوله للطلبة لن يختلف كثيرا عن الأخبار التي يبثّها التلفاز والإذاعات ليل نهار، ولم أعد أحتاج أيضا إلى استعمال رأسي أو ذاكرتي، فما أفعله اليوم لا يختلف عما فعلته في الأمس، ولن يختلف عمّا سأفعله غداً.

ـ ما الذي تحاول فعله يا "رِجّالْ"؟
- ما زلتُ "رِجّالْ"، ها أنت تقولينها!

لم تتقبّل فحولته يوما!

كانت الأشياء تسير بشكل روتيني، لم ترفض له طلبا حين كان يأتيها ليلا، ففي أحيان كثيرة تنتهي المهمة بسرعة، وهذا ما يسعدها، أما حينما يكثر من مداعباته ويُمعن في تجواله على تضاريس جسدها، فكانت تتكمش من الداخل وتتكوّر وتتمنى لو أنها تحوّلت إلى قنفذ تُغلّف جسدها أشواك تحيل بينها وبينه، لكن جسدها البض كان يغريه دوما فيمعن في الحفر ليغوص في كل تضاريسها كأنه يتعمّد أن يترك بصمه في كل زاوية.

ليلة دخْلتها، لم تكن متلهفة لاكتشاف تلك اللذة التي لطالما قرأت وسمعت عنها بل كانت ترجو أن ينتهي الأمر بسرعة لتنام بعد أن أرهقتها الاستعدادات للعرس. كان الصمت الذي استقبلها في غرفة الفندق هو الشيء الوحيد الذي احتاجته حقّا في تلك اللحظة، وكم تمنّت أن يصمت هو الآخر ليتركها تنام. تقدّمته في دخول الغرفة واستغلت فرصة بقائه عند الباب لتوديع مرافقيه، أمه وإخوته الذين أصرّوا على مرافقة العريس حتى باب غرفته، كأنهم يوفرون له الدعم ليشرع بالغزو. وجدت نفسها وسط غرفة نوم فاخرة، كل ما فيها ناصع البياض، ليته كان كفنها لتنتهي من هذا كله. أشاحت بوجهها عن مشهد الفراش ووجدت نفسها تقف بمواجهة مرآة منضدة الزينة، كأنها شاهد على

عرسها، ها هي بثوبها الأبيض وكتل من الألوان تغطي شعرها ووجهها. أغمضت عينيها في محاولة لتتذكّر وجهها الأصلي، دون مكياج، فطبقات المكياج على الوجوه غالبا ما كانت تثير غثيانها. لكي تتخلص من المكياج ومنه، هرعت إلى الحمّام قبل أن ينتبه لذلك، وسارعت بغسل وجهها وإزالة الدبابيس عن شعرها لتحرره من الطرحة والكعكة اللتين سُجن فيهما طيلة المساء. ورغم أن مهمة تنظيف وجهها كانت عسيرة، إلّا أنها نجحت بإزالة كل ما تبقّى من المكياج باستعمال كريم مرطب وجدته في الحمّام.

- آمنة، ما الذي تفعلينه في الحمّام كل هذا الوقت؟

أعادها صوته إلى ما حولها وهي تحاول استرجاع ملامح وجهها، كأنها نسيت وجوده معها في الغرفة، فكيف ستتقبّل وجوده معها طيلة السنوات المقبلة!

سحبت نفَسا عميقا وخرجت منتصرة وهي ترى ابتسامته تستحيل إلى دهشة وإحباط، لم يكن يتوقع أن تحرمه عروسه من متعة النظر في وجهها طويلا وإزاحة طرْحتها بيديه ليقبّلها على جبينها كما يحدث في الأفلام، بل لم تترك له مجالا حتى ليساعدها في خلع ثوب الزفاف، فقد قامت بذلك بنفسها وارتدت ثوب نوم طويلا بأكمام طويلة.

- آمنة، لِمَ فعلتِ ذلك؟ انتظرتُ هذه اللحظة طويلا. كنت أتمنّى أن أراقصكِ وأنت ترتدين ثوب العرس، حتى إنني أحضرت كاميرتي الخاصة لألتقط لك صورا بفستان العرس الأبيض، هنا على الفراش. لماذا؟

_ لا مجال للرومانسية. كان الحر شديدا في الخارج، كما تعلم، لم أحتمل ثقل ثوب العرس وهذه الأصباغ على وجهي. شعرتُ بأني أختنق.

للحظة تعاطفت معه، استيقظ ضميرها ليؤنبها على رغبتها بعقابه، فهو في نهاية الأمر ليس مذنبا، لم يكن يعلم أن القدر أرسله إلى أهلها ليتخلصوا من عارها

بعد أن سبّبت لهم فضيحة بمبيتها ليلة في مركز للشرطة حيث قُبض عليها برفقة شاب. لم يمتلك أبوها الحنون الجرأة لقتلها، بل فعل كل ما بوسعه ليمنع أخاها "نبيل" من ذلك. وقبل أن ينتشر الخبر بين الجيران، استأجر "نبيل" بيتا في منطقة أخرى لتنتقل العائلة كلها بعد يومين على الحادث وتبدأ حياة مختلفة في مكان آخر، أهم قاعدة فيها هي إغلاق باب العائلة أمام وجوه الناس، حتى نعت الجيران عائلتها بـ(الغرباء). لكن توجّس الناس لم يمنع ابن الجيران من الوقوع في حبها، خصوصا أنه قضى السنوات الأربع في مراقبتها ولم يجد في سلوكها ما يبرّر مخاوف أهله. كان يلمحها صباحا أثناء ذهابها إلى الجامعة، فتقدّم لخطبتها بعد تخرجّها فورا، وبالطبع لم تنجح محاولاتها بالرفض، بل كان أبوها كريما جدّا حين وافق على تأجيل الزواج لسنة كاملة بحجة أن ابنته لن تستطيع الحياة في الريف حيث كان خطيبها يؤدي عمله.

- أتفهّم الأمر، ككل عروس، أنت نجلة.

ليتها تستطيع أن تحدّثه عن "سلام"، وعن تلك القبلة التي انتظرتها طويلا والتي استحالت إلى أصفاد تكبّل يديها لتُلقي بها في سجن لم يكن أرحم من الزنزانة التي قضت فيها ليلة فرحتها الأولى.

جلست على حافة الفراش تراقب قطع الملابس التي كان ينضوها عن جسده، لم تتجرأ على رفع رأسها أكثر، اقترب منها وصارت قدماه العاريتان تلامسان قدميها، يده تداعب شعرها، خدّها، أنفها، ليقف عند ذقنها يرفعها إليه، كانت بطنه أوّل جزء وقعت عليه عيناها ولم تشأ أن تنظر إلى أسفلها.

لم تستطع احتمال ثقل منظر جسده الشامخ أعلى من مستوى النظر، ذكّرها ذلك بملوية سامراء حين كانت ترمي بكل رأسها إلى الوراء لتشاهد قمّتها، لذا كانت

تصرّ على الصعود إلى أعلى نقطة رغم اعتراض أبيها على جنونها وهي طفلة صغيرة.

هي الآن لا ترغب بالصعود إلى قمة هذا الشخص ولا تريد حتى أن تكتشف ما يوجد داخل رأسه، لكن النظر إليه بهذا الشكل أرهق رقبتها لذا نهضت مستجيبة ليديه اللتين حطّتا على كتفيها في محاولة إنهاضها.

آآآهههـ لو أن أمها، فقط، جلبت لها ذلك العقار وكتبت تلك الورقة كما كان يحدث مع الفتيات الإنجليزيات!

قرأت مرة أن في القرون البعيدة، في ليلة زواج الفتاة الإنجليزية، كانت الأم تسقيها عقارا منوّما وتضع إلى جانبها على الفراش ورقة كُتب عليها (أمي تقول لك افعلْ ما تشاء) لكي تجنّبها الإحراج والخجل والألم، لكن أمها لم تفعل، بل نصحتها بأن تسلّم نفسها له دون أية مقاومة لينتهي الأمر بسلام، فهو ليس أكثر من وخزة دبوس، كما قالت.

هكذا انتهى الأمر دون أن تفكّر أو حتى تتذكّر كيف.

_ سأمنحك ما تريد إنْ كنت قادرا على الحصول عليه.

- من قال إني غير قادر؟

_ هذه الحقيقة، واجهْ نفسك، أنت عاجز، منذ زمن طويل، لن تقدر.

- تعلمين كيف هو الأمر، عطّلوا كل ما فينا.

_ ليس تماما، الرغبة غير مشمولة بالبرمجة، كان يجب أن تقاتل.

- قاتلتُ كثيرا، سنوات طويلة قضيتها على جبهات القتال، تعبت من القتال هناك وهنا.

_ ذلك أمر مختلف، هناك كنت تقاتل الموت لتظلّ حيّا، أما هنا فعليك أن تقاتل من أجل الحياة نفسها.

- الحياة والموت وجهان لخيبة واحدة.
_ الخيبة أن تفكّر بالموت فقط.
- كُلّنا كان يفكّر بالموت، بل ما زلنا نفكّر به، هل هناك ما يستحق التفكير أكثر من الموت، أهناك ما هو أقسى؟
_ نعم، الأقسى أن تكون ميتاً، بينما هناك من يظن أنه ينعم عليك بالحياة.
- أنت قاسية، لطالما كنتِ كذلك.
_ القسوة أن يكون جسدي تحت مرآهم، بمجرد أن تنتهي هذه الساعة وتبدأ البرمجة سيبدأون بفحص ذاكراتنا، سيعرفون كل ما فعلناه خلال الساعتين اللتين سمحوا لنا باستخدامهما، هل تقبل أن نتفحّص عيونهم القذرة جسدي؟
- لست معنيّا كي أقبل أو لا أقبل، ما نحن إلّا فئران تجارب.

12

لكُلّ شيء في الحياة غشاء بكارة، ما إن تفضّه يُصبح الشيء معتادا، الألم، الخوف، اللذة، القلق، الفضول، بل حتى الضمير، الذي يظلّ حيّا طالما أنك لم تفتضّ خيانته بعد.

هل كنت أملك ضميرا وأنا في الثامنة عشرة من عمري؟

هل أضعته حين تخلّيت عن "آمنة"؟

ألقى بنفسه على فراشه، فغاصت أفكاره هي الأخرى في دفء الفراش الذي يحب، أسند رأسه إلى وسادة بينما احتضن الأخرى كعادته ليحظى ببعض الحنان الذي يمكن أن تمنحه إيّاه وسادة صمّاء!

قبل أن يتلقّف أول خيوط النوم سمع وقع خطوات أمه تقترب من باب الغرفة، ستتساءل عن سبب عبوره الصالة دون أن يتوقّف لشرب الشاي أو تناول الفطور الذي أعدّته له بعد ليلة غياب، فالتقطت حاسة شمّه رائحة المسك المتعلقة بثيابها، وأدرك أنها اقتربت أكثر، بل دنت من حافة السرير.

ـ من غير المعقول أنك غفوت بهذه السرعة؟

- كنت سأفعل لو لم تفتحي الباب.

ـ لستَ جائعا إذاً؟

- جائع للنوم يا أمي، هل لك أن تتركيني؟

ـ تركتك كثيرا. كُلّ مرة تعدُني بوقت للكلام ثم تقضي إجازتك في الفراش، تجاوزتَ الأربعين يا "سلام" وضاع عمرك في هذا العمل المرهق. أيّة بحوث هذه التي لا تنتهي أبدا؟ أولاد أقرانك صاروا شبابا يا بنيّ.

- لا أحتاج أولادا يا أمي.

ـ وماذا عنّي وأبيك الذي رحل بحسرة أن يرى حفيدا من صلبك؟

- لديك الكثير من الأحفاد، لم تُقصّر أخواتي في رفدكم بكلّ أنواع المتخلفين.

ـ الولد يحمل اسم أبيه، أولاد إخواتك لأهلهم وأنت ولدي الوحيد.

- لن يضيف اسمي شيئا لهذا العالم يا أمي، سيّان إن ظلّ أو امّحى، أرجوك دعيني أنام.

غادرت أمه الغرفة مخلّفة وراءها رائحة المسك التي سيطردها بالدخان، أشعل سيكارة وهو يعتدل في جلسته وتمنّى لوهلة لو أنها كانت مشمولة بالبرمجة شأنها شأن كل الناس ليتخلص من ملاحقتها له كل مرة يجتاز عتبة الدار، لكنّه بسبب مركزه المهم مستثنى ومن يختاره من البرمجة فكانت أمه لأنها الوحيدة التي يثق تماما بأنها لا تحمل أية تطلعات ثورية أو أفكار انقلابية.

يُمكن أن تكذب على أحد في وجهه وأن تحافظ على رباطة جأشك حين تعلم سبب كذبك، دون أن تنسى الحقيقة، وهو بدوره كذب على أمه، أبيه، أخواته، وكلّ الناس حين أوهمهم بأنه يعمل في مؤسسة للبحث والدراسات تختص بشؤون البيئة، بينما يدرك في داخله بأنه قاتل وأن دماء من كان سبباً في قتلهم ستبوح باسمه يوما ما.

راقب حلقات الدخان ترتفع شيئا فشيئا حتى تقترب من سقف الغرفة، كان يأمل أن تستردّ عيناه الوسن الذي كان يضيّق حدقتيه قبل قليل لكنّ رائحة المسك التي خلفتها زيارة أمه القصيرة أعادت إلى ذهنه ذكرى ذلك اليوم الذي ألقى فيه بنفسه بين حضنها باكيا كطفل بعد أن عاد من شهر من الاحتجاز، إذ كان في الثامنة عشرة حين اختطفوا حلمه وجرجروه من حضن "آمنة" ليلقوا به في سجن مظلم، وحيدا في زنزانة دون رفيق أو تهمة سوى امتلاكه لعقلٍ متميز.

لو زاد ذكاؤك عن مستوى معيّن تصبح الحياة لا تطاق.

هذا ما قاله له أستاذه يوما حين تمكّن من حلّ مسألة رياضية لم يجد لها حلّا، حينها فرح كثيرا وظنّ بأن ذكاءه كان نعمة تميّزه عن أقرانه، فمنذ أن وطئت قدماه عتبة المدرسة كان المتفوّق دائما على كل أقرانه، ولكثرة ولعه بالرياضيات والفيزياء والهندسة وضعَ نصب عينيه هدفاً لا غير وهو أن يصبح مهندسا معماريا، رغم أن عائلته كانت تشجّعه ليكون طبيبا. لأجلها فقط، رضيَ أن يتنازل عن هدفه، قرّر أن يصبح طبيبا بعد أن حاز على المرتبتين الأولى في مدرسته والثالثة في بلده، فقط لأن الاطباء لا يذهبون إلى جبهات القتال.

كانت تكره كل الألوان الخاكية وما يتعلق بها، أخبرتْه بأنها لا تود أبدا أن تراه بالزيّ العسكري، حتى إن اضطر يوما ما للخدمة الإجبارية في جبهات القتال. ولسوء حظّه، كان هو سببا في أن تقع بين أيدي رجال الشرطة ويتشبّع نظرها بألوانهم الخاكية التي تكرهها. لم تفارقْه نظرة عينيها المرتعبة، ولا صوتها المجروح وهي تتوسّل رجل الشرطة أن يعيدها إلى أهلها، ومع ذلك فكل ما فعله لها أنه قذف بوجهها آخر جملة قطعت كل صلات الوصل بينهما: لا تقولي إنك تعرفينني، تعرّفت عليّ الأسبوع الماضي فقط في المكتبة العامة، فقط تعرفين اسمي وما بيننا ليس إلّا غلطة.

بعد تلك اللحظة، لم يعد له وجود في عالمها مع أنها كانت تسير قريبة منه حين اقتادهما الشرطيان إلى مركز شرطة السعدون، لم تنظر له مطلقا رغم أنه جلس بجوارها للحظات قبل أن يسحبوه بعيدا عنها إلى غرفة منفصلة. ظلّت تلك اللحظات محفورة في ذاكرته سنوات طويلة وما تزال، فكلّ ما كان يريده تلك الليلة هو أن يطمئن على عودتها إلى بيتها بعد اعتقاله، وافق على تنفيذ كل أوامرهم شرط إطلاق سراحها فورا، وهذا ما لم يحدث، كما علم فيما بعد. تدافعت صور كثيرة إلى رأسه وخشيَ أن تمتدّ أيديهم القذرة إلى جسدها

الطاهر، توسّل كثيرا إلى الشرطي أن يخبره بما جرى لها، بل طلب إليهم أن يقتلوه إن شاؤوا، شرط أن يكفّوا أيديهم عنها، فهي لم تتورط بأيّ شيء، هذا فيما إذا كان هو متورّطا بأمر ما، فحينها لم يكن يعلم لمَ اعتقلوه. لم يجبه أحد على تساؤلاته طيلة الشهر الذي قضاه في المعتقل، حتى جاء يوم إطلاق سراحه الذي تمّ بناء على اتّفاق معه بأن يعمل معهم، فتكّم عليه الضابط بإخباره بأن الفتاة أُطلق سراحها تلك الليلة وعادت إلى أهلها. كذبوا وصدّق، ومع ذلك لم يتجرّأ على الاتصال بها حين عاد إلى بيته، وحين اقترب موعد سفره حاول الاتصال بها لكنّ هاتف بيتها الأرضي كان خارج الخدمة، ثم إن بيتها نفسه لم يعد بيتها، فقد اختفت مع أهلها من الحيّ بعد تلك اللّيلة ولم يجد لهم أثرا.

حين عاد بعد أربع سنوات من الدراسة في بلد أجنبي، حاول أن يعثر على أيّ خيط يوصله إليها، لكنّ الأمر لم يعد يعنيه وحدَه، بل يعني العمل الذي يمثّله والذي لن يسمح له بالاقتران بها حتى إن رضيَت هي بذلك، فقد أصبحت عائلتها تحت المراقبة بعد أن هرب أحد أخوتها إلى خارج البلد بطريقة غير مشروعة، وهكذا أغلق القدر ملفّ "آمنة" قبل عشرين عاما ليعود ويفتحه من جديد بعد أن صارت "آمنة" المواطنة (247).

13

حين صعدت إلى سطح الدار ذلك اليوم، وقت الغروب، لم يكن هدفها مراقبة ابنتها الكبرى التي وجدتها في حضن ابن الجيران، بل كان لها هدف آخر لا يعلم به سوى ابنها الصبي ذي الأحد عشر عاما. ومع أن البرتقالة وشت بأختها لأمها حين رأتها تستبدل قميص البيت بفستان المناسبات، إلّا أن الأم لم تكن تصغي تماما لابنتها الصغرى، كان ذهنها مشغولا بأمر آخر تحتاج لإكماله قبل حلول ساعة القطع المبرمج. تبادلت نظرة مع الصبي، أصبحت شيفرة بينها وبينه فيما بعد، فور استلامها يسبقها إلى سطح الدار لتتبعه وهي تجرّ كتل اللحم على درجات السلّم كمن يدفع عربة مثقلة بالآجر. لحسن حظّها، سبقته في الصعود هذه المرة، حيث أرسلته لشراء حلوى لأخته الصغرى لتشغلها عنها فلا تتساءل عن غيابها.

ماذا لو سبقها فشاهد أخته في حضن ابن الجيران؟

ربما كان سيفتعل ضجّة ويخبر أباه ويتحوّل الأمر إلى فضيحة، أو ربما سيتسبّب ذلك له بصدمة، فالأخت الكبرى تظل رمزا للبراءة والطهارة في ذهنه، فلا يتوقّع يوما منها أيّ تصرّف شائن، وإلّا ستصبح كل النساء موضع شك ولن يثق بواحدة في حال كبر وأراد الزواج.

كيف لا، وهي نفسها صُدمت بما رأته، فهي الأم التي ربّت هذه الفتاة وحذّرتها كثيرا من أن تبيح جسدها لرجل قبل الزواج، فتجربتها حين حلمت بقبلتها الأولى مع "سلام"، كانت كافية لتحصّن ابنتها ضد أية رغبة.

الغريب في الأمر أنها لم تصرخ، لم تثر، لم توبّخ الشاب أو ابنتها، بل عجزت حتى عن النطق، رغم أن ذلك ليس غريبا على "آمنة" التي تعوّد منها الجميع الحكمة

والهدوء في كل المواقف إلّا في موقف كهذا، لا يمكن لأيّ أم احتماله دون أن تنفجر غضبا. لكن ما حدث حين رأى الشاب جسدها الضخم يسدّ منافذ الرؤية عند باب السطح، هو أنه أبعد ابنتها عنه بخفّة والتفت هاربا ليعبر السياج إلى سطح داره بينما صُعقت الابنة لمرآى أمها وتجمّد جسدها دون حراك، رقبتها فقط استدارت لتراقب الأم وهي تعود أدراجها لتنزل درجات السلّم بوهن، تتمتم وترجو الله أن يساعد قدميها على حملها لإكمال المسافة إلى غرفتها. عند السلّمة الأخيرة، تهاوت "آمنة" غير قادرة على مواصلة الطريق، بينما ظلّت الابنة مسجونة على سطح الدار لفترة قبل أن تجرؤ على نزول السلّم.

عاد ابنها من الخارج ليدسّ قطعة الحلوى بيد البرتقالة مشترطا عليها أن تجلس بهدوء لتشاهد التلفاز الذي كان يبث فيلم كارتون بعد السادسة مساء. هو يعلم أهمية هذا التوقيت بالنسبة لأمه، لذا استعدّ ليلحق بها إلى سطح الدار. فوجئ برؤيتها تتكوّم على السلّمة الأخيرة ذاهلة، لم يتكلم أو يبادر إلى تذكيرها بمغامرتهما معا لأنها حذّرته من أن يتفوّه بأية كلمة حتى لو كان معها على انفراد، لذا عمد إلى إثارة انتباهها بقذف كرته وتعمّد ارتطامها بالجدار القريب منها، الصوت الذي لا تحبه كثيرا، ولمّا لم تستجب، شعر بأنّ أمرا خطيرا يشغل بالها، ربما علم أحد بما يخطّطان له، أو ربما اكتشف أحد أفراد العائلة صندوق التجارب الذي يضمّ سرّهما في سطح الدار! لم تسعفه سنواته الاثنتا عشرة بعد بمعلومات حول أسرار تبدّل مزاج الكبار أو إدراك سرّ التماع الدمعة في عينيْ أمه التي جمدت نظرتها على لا شيء وهي تتكوّم على السلّمة. حاول أن يجد أسلوبا آخر لتذكيرها بوقت المهمة الذي شارف على الانتهاء، ها هو الظلام يهبط ولن يكون بإمكانهما استخدام أيّة شمعة أو إشعال ضوء ما لئلا ترصده كاميرات المراقبة.

التقط الكرة، وباغتها بإلحاح: متى يحين موعد العشاء؟ يا أمي! أنا جائع.

لم تُشعره حتى بأنها تفهم ما يقصد كأنها تجهل تماما سبب إلحاحه والتصاقه بها، خرجت الكلمات من فمها بطريقة آلية: اذهبْ إلى أختك، أنا متعبة، سأنام قليلا.

ردَّ متفاجئا: لم يحدث يوما أن نمتِ مبكّرا، لم تتجاوز الساعة السادسة، لم يحن الغروب بعد!

تعمّد تكرار الوقت وتذكيرها بالغروب ليوحي لها بحلول وقت المهمة لكنها بدت غير مهتمة، كل ما كانت تريده هو أن تنام مع أنها مُقلّة في ساعات النوم، خصوصا أثناء النهار أو الغروب، ذلك أن زوجها ينام خلال هذه الساعات وهو تماما ما تحتاجه لتنفيذ ما شرعت به، تحويل خطوط التوزيع لتتمكن من سرقة ذاكرته وتدعيم ذاكرتها بأكبر قدر ممكن من الطاقة يكفيها لتظلّ واعية لما حولها طيلة أربع وعشرين ساعة.

متى طرأت على بالها فكرة كهذه؟ ولماذا؟ ماذا تفعل بذاكرته المعطوبة؟!

هو يستذكر هزيمة ليداريها بخيبة.

ليس في حياته الكثير من المنجزات كما كانت تظن، وليس مرشّحا ليكون بطلا ولو بلعبة الدومينو التي كانت تستهلك معظم أوقات فراغه في بدايات حياتهما الزوجية حيث كان يتركها تعتني بابنتها وحيدة ويقضي الليل في بيت أحد الأصدقاء ليلعب دومينو معه.

في حقيقة الأمر، لم تفكّر ولو للحظة باختراع أو بإبداع، كل ما كان يشغل تفكيرها هو الشعور بأن حياتها وحياة عائلتها في ظل البرمجة موت بطيء، لا تريد لأولادها أن يموتوا مبكّرا وأكبرهم لم يبلغ الثامنة عشرة للآن!

ألا يكفي أن ابنتها الكبرى فشلت في دراستها، تبلّدت واستسلمت لأفكار زميلاتها في المدرسة عن لا جدوى الدراسة في زمن الحصار الذي أصبح فيه

راتب الموظف أمرا يثير السخرية، لا يكفي حتى لشراء كيلو غرام من اللحم أو حذاء!

كانت تحلم بأن يرث أولادها نشاط طفولتها، حماس صباها، طموحها، وأحلامها بالتغيير وهي شابة، كل تلك الأشياء التي وُئدت على مذبح قُبلة وُلدت يتيمة. لولا تلك الحادثة لأكملت دراستها العليا ولكانت الآن تعمل أستاذة في الجامعة أو في وظيفة تليق بعقلها المتنور وكفاءتها، لكن الحياة الزوجية وتربية الأطفال واللهاث المستمر لإطعام أفواه عائلتها جعلتها تتقن فنّ التسول، الأمر الذي لطالما جرح كرامتها وسبّب لها الحرج. فكَمْ من مرة وقفت على باب إخوتها أو صديقاتها لتستدين ثمن كسوة أولادها أو طعامهم أو أجور مراجعة الطبيب. صحيح أنّها تسدّد كل ما عليها من ديون، لكن الإذلال الذي يرافقها حين تستدين لا يمكن أن تغفره لزوجها الذي ركن إلى تدبيرها واكتفى براتبه المتواضع الذي يضعه بين يديها كل بداية شهر دون أن يهتم فيما إذا كان سيكفي لسدّ حاجات العائلة لأسبوع أو أقل. بالطبع، لم يكن راتبها بأفضل من ذلك، مما يعني أن تدبيرها مهما اكتمل لن يفي حق الشهر كاملا، وعليها دائما أن تفكر بشخص تستدين منه لإكمال مصاريف آخر أسبوع أو أسبوعين من الشهر.

كثيراً ما شجّعتْه على أن يجد عملا إضافيّا في المساء، كسائق أجرة أو شريك في مشروع صغير مع أحد أصدقائه الذين استطاعوا التغلّب على قسوة الحصار بشطارتهم، لكنه لم يكن يستطيع الخروج من قالب مدرس التأريخ الذي حفظ محاضراته عن ظهر قلب وصار يؤديها كببغاء، فقط ليكمل يوم عمله ويعود للنوم نهارا ولعب الدومينو مع أصدقائه ليلا.

كان خوفها يتزايد من أن يرث أبناؤها عجزه وانعدام الطموح لديه، وتأكّد هذا الخوف حين تسلّمتْ شهادة ابنتها الكبرى الملآى بالدوائر الحمر لتسجّل فشلها للسنة الثانية في الصف الأول من المرحلة المتوسطة. يومها صرخت في وجوه

أولادها وقد توّرم وجهها لشدة ما انتفخ غضبا واحتقنت عيناها لشدّة ما تجمّع فيهما من دمع، حاولت جاهدة منعه من الإنهمار أمامهم: معظم الناس ينجبون لأنهم يريدون أن يصبحوا آباء وأمّهات. يريدون امتداداً لأسمائهم وأنسابهم. يريدون سنداً لأيام شيخوختهم. وأنا أنجبتكم لأني أردت امتداداً لأحلامي. أردت أن أهبَكم كلّ ماتعلّمته، ظننت أنني أستطيع أن أقدّم لكم الحكمة على طبق من فضة، ولم أكن أدرك أن الحكمة لا تُورَّث بل تُكتسب، وأن علينا أن نكرّر نفس الأخطاء التي ارتكبها غيرنا لنتعلم.

تذمّرتْ: تكرّرين الكلمات ذاتها يا أمي، ماذا أفعل أنا بالحكمة؟ في النهاية سأتزوج وأنجب أولادا، وإنْ كنتُ محظوظة بما فيه الكفاية، أحصل على زوج غني كي لا أكرّر نفس المأساة التي تعيشينها الآن، بماذا نفعتْك حكمتك؟

لم تفاجئها طريقة تفكير ابنتها الكبرى، فهي تعرفها تماما، بل فاجأتها مواجهة نفسها من خلال كلماتها! فعلاً... بماذا نفعتْها الحكمة؟ فهي لا تختلف عن أية امرأة أخرى ابتلعتها عجلة الحصار.

قال ابنها: أفهمك أمي، لن أخذلك.

هل يمكن للصبي ذي الاثني عشر عاما أن يفهمها حقّا، وأن يدرك معنى ما قالته؟

ليس مهمّا، يكفي أنه شعر بها وقرر ألّا يخذلها.

هكذا صار الأقرب إلى قلبها وصندوق أسرارها، فقد ورث عنها الحكمة المبكّرة والعقل الراجح وشاركها المسؤولية في رعاية أخته الصغرى وتلبية طلبات أبيه، حتى صارت اللحظة التي تسمع فيها خطواته يجري مسرعا ليجتاز باب الدار ويصرخ بفرح (أمي) هي أسعد لحظات حياتها، لأنها تعني أنه عائد وهو يحمل شهادة تفوقه ليثبت لها أنه لن يخذلها.

لذلك اختارته شريكا لها بما عزمت عليه، فلم يتوان عن مساعدتها، بل وجد في الأمر مغامرة تليق بصبيّ يحتاج جواز مرور للولوج إلى أعتاب الرجولة كي ينال احترام أمه التي أحبّها حدّ

العشق، والتي أدرك بقلبه أنها تستحق الاحترام والطاعة رغم أنه لا يفهم الكثير مما تقوله.

بعينيه الواسعتين السوداوين كان يطلق إشارة البدء حين يحرّك حدقتيه يمينا وشمالا ليوحي لأمه بأنه فهم إشارتها وأنه مستعد للصعود إلى سطح الدار معها لإكمال المهمة.

بدأ الأمر، في أحد الأيام، حين ذهبت لزيارة الطبيبة خلال فترة القطع المبرمج رغم أنها لا تفعل ذلك عادة، إلّا أنّ آلاما حادّة في رِحمها أجبرتها على الذهاب مبكرة لتحصل على موعد لدى طبيبة أمراض نسائية، فالانتظار قد يطول في حال لم تتسلّم الطبيبة حصّتها الإضافية من ساعات استعادة الرؤوس التي تُمنح للأطباء فترة المساء ليتمكنوا من معاينة مرضاهم، أو هكذا كانت تظن، قبل أن تدرك أن الرأس موجود لم يغادر الكتفين يوما، فقط الذاكرة هي التي تَجري مصادرتها.

حشرت جسدها بين أكوام النساء، غالبيّتهن من الحوامل، تساءلت: كيف ومتى حبلْن بكل هذه الأجنّة؟ ألا يستعمل الرجال ذاكراتهم لأشياء أخرى؟ أم أن زيادة النسل هي رسالتهم الوحيدة الآن لتعويض كَمّ الشهداء؟

رغم أن عيادة الطبيبة، غصّت بالنساء من كل الأعمار، إلّا أنها كانت ترى فيهنّ امرأة واحدة ببطن مكوّرة ووجه بلا ملامح، يشبه الوجه الذي ترسمه ابنتها الصغرى، دائرة كبيرة أعلاها دائرتان سوداوان وفي الوسط خطّان متوازيان ينتهيان بخطٍّ أفقي هو الفم المغلق على عشرات الحكايا. حتى شكواهنّ كانت

متشابهة، مع أن كل واحدة منهنّ تظنّ أن وضعها هو الأصعب وأنها تستحق التعاطف أكثر من غيرها، لكن غرغرة البلعوم بالتقطيع الرتيب الذي يعجز عن رصف الكلمات بطريقة واضحة أحالت المكان إلى قنّ دجاج يتشابه فيه النقيق ويعلو كنشيد لجوقة من المتخلفين عقليّا. لذلك لم تتكلم هي رغم محاولات المرأة اللصيقة بها استدراجها للحوار، بل اكتفت بإيماءة من يدها وإحناء رقبتها بين فترة وأخرى لتثنيَ على كلامها الذي لم تفهم منه الكثير.

دقّت الساعة السادسة مساء ودورها لم يَحِنْ بعد، تمنّت لو أنها استطاعت العودة إلى البيت لتشحن ذاكرتها، فقد حان موعد إعادة الرؤوس. لم تكن تعلم بأن ابنتها استغلّت غيابها، وتسلّلت إلى رأسها الذي كان يضيء في الزاوية المخصصة له دون أن يجد من يرتديه. ومن خلال تتبع خط الطاقة استطاعت الفتاة الدخول إلى ذاكرة أمها ومعرفة الكثير مما لم ترغب الأم بإخباره لابنتها. أما الأبنة، فهي بدورها، لم تكن تعلم أن أخاها كان يراقبها، وسيخبر أمه عمّا رآه.

14

أن تحمل رأسك فوق كتفيك لا يعني أبدا أنك تمتلكه.

هو يدرك هذا، بل تأكّد تماما بأنه باع رأسه إلى السلطة بعقدٍ حين وافق على العمل معها، وهل كان يملك الخيار؟!

لم يكن هو من اختار هذا الرأس بل وهبه له الخالق، لم يكن يدرك بأن ذكاءه الخارق وتفوّقه ومواهبه المتميزة في الرياضيات ستكون وبالاً عليه، ولم يتصوّر يوما، حين كان يغطّ في أحلام الصبا، بأن الإرادة لا تكفي وحدها لتحقيق الأحلام حين يولد مسلوب الإرادة!

هدّدوه باستباحة وقتل أمه، أبيه، أخواته...

و"آمنة"! كيف له أن يذبحها مرّتين؟

كان عليه أن يقبل السفر والبعثة لدراسة علم الحاسوب في دولة متقدمة، العلم الجديد آنذاك، ليعود بعد أربع سنوات مع مجموعة من الأدمغة الذكية من أقرانه وقد أصبحوا جاهزين لتأسيس أكبر منظومة للتجسس على رؤوس المواطنين، وصولاً إلى حجبِ الذاكرة، تقنينها، ثم تنظيمها ببرمجة تسمح للفرد أن يمارس فعالياته الحيوية والحياتية بما يكفي لبقائه وأدائه عمله، وقد استغرق العمل سنوات، قاموا خلالها بتدريب كادر يكفي لتأسيس شبكة تتوزّع خيوطها لتشمل كل المحافظات والأقضية حتى تصل إلى أبعد نقطة على حدود البلد.

ها هي يده التي ساهمت في تأسيس الشبكة توصله إلى "آمنة"، المواطنة (247)، التي صار محور تركيزه هو حمايتها من عيون المتلصّصين. باتَ يشعر بأن من واجبه صيانة ما كان سبباً في افتضاحه، فلولا ذلك اللقاء اليتيم ما صارت مع

رجل آخر، ربما انتظرته حتى يعود من رحلة الدراسة ليقترن بها، ولربما صار أباً لأولادها الثلاثة الذين يحملون الآن اسم زوجها الذي لا تحبه.

- لا جدوى مما تقولينه الآن، بعد كل هذا العمر، الرجل لم يفعل لك شيئا كي يستحقّ كل هذا الكره، هو يحبك.

ـ ليس حبّا ذاك الذي يجد طريقه إلى التغيير، أو يمكن إزالته عندما يريده شخص أن يزول، الحب أثر لا يزول.

- كحبّك لذلك الشقيّ الذي أوصلك إلى مركز الشرطة وتخلّى عنك؟

ـ ألن تكفّي يا أمي؟ ألم تنسَيْ؟

- كيف أنسى من كان سبباً في موت أبيك؟

ـ أبي مات بعد الحادثة بسنتين، مرضَ فمات!

- مرضَ من القهر على بيته الذي تركه بسببك، باعه بثمن بخس ليتجنّب نظرات الناس وتساؤلاتهم...

ـ ستظلّين دائما تلقين اللوم عليّ لما جرى في هذا البيت، يبدو أنني أخطأت حين جئت لزيارتك اليوم!

- هل جئتِ فعلا يا آمنة؟ ما أنت إلّا خيال لابنتي التي كنت أعرفها. لماذا جئت؟ ما الذي تنوين فعله؟ فأنت لا تزورينني إلّا حين تكونين مُقْدمة على أمرٍ جلل!

ـ لم تكوني ظالمة يوما يا أمي، فمتى تغفرين؟!

يعرف هذا الحوار، وحوارات أخرى كثيرة دارت بينها وبين زوجها وأولادها وأمها وإخوتها، بل حتى مع زملائها في العمل. يعرف متى تنام ومتى تستيقظ، بماذا تفكر ومتى تأكل، يرسم في مخيّلته صورا لوجهها وجسدها عبْر عشرين عاما...

هل حقّا ازداد وزنها كما تقول؟! كيف يمكن لذلك الجسد المشدود كوتدِ خيمة أن يتضخّم؟! هل تلعثمت مشيتها التي كانت تدكّ وجه الأرض كصولجان ملك؟!

ربما تغيّر فيها المظهر لكنّ ذلك العقل الذي أحبّ لم يتغير وهذا ما يحاول أن ينقذها منه، فلا يجب المخاطرة بما لا نستطيع خسارته.

15

قال طالب لأستاذه: لا أعرف أين أذهب، فالاتجاهات الأربعة أمامي مسدودة: يسار، يمين، خلف، أمام!

أجابه الأستاذ: الأعلى مفتوح... أُنظرْ إلى الأعلى.

قرأت "آمنة" هذا منذ زمن بعيد أثناء بحثها عن خيار الزن في الفلسفة البوذية، حين كان أمامها متسع من الخيارات ولم تستخدمها بالشكل الصحيح، فبماذا تُفيدها هذه الفلسفة الآن بعد ان أُغلقت الاتجاهات الأربعة؟

فاليسار بالنسبة لها هو الطريق الذي تسلكه وصولا إلى موقف السيارات العام حين تغادر دارها صباحا. حدث ذات مرة أنها أضاعت الطريق إلى الموقف حين قطعت أعمال الصيانة الطريق وتغيّر شكله، فكان عليها الدوران حول الزقاق بعد توجّهها يمينا. أمّا اليمين فهو موقع مطبخ بيتها الذي تقضي فيه معظم وقتها مساءً، أما الخلف فلا يمثّل قلقا لها وحدها بل لكل الناس الذين يحرصون دائما على ألّا أحد يتبعهم. وفيما يتعلق بالأمام، هو مشغول دائما بصورة القائد التي تصطدم بها العين في أي مكان تقصده مما يحجب مدى الرؤية، ناهيك عن التحذير الذي تبثه نظرة عينيه في النفس من ألّا جدوى من النظر أبعد من مدى ملامح وجهه. لذا لم يتبقّ لها إلّا الركون إلى خيار الزن والنظر إلى أعلى، وبما أن السقف هو ما تصطدم به عيناها في دارها، كان عليها أن تختلي بنفسها في سطح الدار لتنظر إلى السماء التي لم تصلها أية تحصينات للآن.

بعد أن علمت بأن ابنتها تمكنت من التجسس على ذاكرتها أثناء غيابها، لم تعد زرقة السماء تعنيها حين تختلي بنفسها في سطح الدار، ولا امتدادها اللامتناهي ولا الدعاء إلى خالقها عن قرب، بل هذه الشبكة المتداخلة من الأسلاك الرفيعة

التي تمتد على سطوح المنازل كأنها جيش من الأفاعي تصطف متلاصقة أو منفصلة قليلا، متشابكة في معظم الأحيان يسندها بين مسافة وأخرى عمود خشبي تلتفّ حوله لتعبر إلى عمود آخر على مسافة مئة متر تقريبا، وهذه الأعمدة الخشبية بدورها تستند على أعمدة الكهرباء التي تتوزّع في الشوارع ثم تكمل الأسلاك زحفها إلى أبعد نقطة في العاصمة حيث يقبع مركز مراقبة الذاكرة.

البعض يقول إنه ملحق بالقصر الرئاسي، فلا يمكن الدخول إليه إلّا بموافقة القائد أو من ينوب عنه من المقربين، والبعض يقول إنه يقبع في أعماق دجلة داخل غواصة لا يغادرها الخبراء الذين يعملون عليها إلّا للضرورة القصوى كموت أحدهم مثلا.

كما هو الحال في كل المجتمعات، في ظروف الحروب، تُثار إشاعات حول أماكن كهذه، "الغواصة" أو "معمل الذاكرة" أو "برمجة الرؤوس"، إلخ من الأسماء التي يبتكرها العامة والتي تساهم هذه الإشاعات في تضخيم أحجامها.

إشاعات لا تتهاون السلطة مع من يتداولها، كما تنكر وجودها تماما.

"الأعلى مفتوح، أُنظرْ إلى الأعلى"، تراقصت حروف هذه الجملة ثانية أمام عينيها، رنّت أصواتا في أذنيها كأطفال مشاكسين يتراقصون أمامها للفتِ انتباهها.

كيف يمكن أن يكون السبيل في الأعلى، والسماء امتداد من السكون؟

إلّا... إلّا ماذا؟

هل يمكن لهذه الأسلاك أن تكون سبيلا للخلاص؟

هل يمكن لها استعادة السيطرة على رأسها والتحكم في أفكارها وذاكرتها؟

إذا كانت ابنتها الكبرى، المتخلّفة في دراستها، والتي لا تُعمِل عقلها في أبسط الأمور، قد استطاعت أن تتسلّل إلى رأسها وتسرق ذاكرتها، فلِمَ لا تستطيع هي أن تفعل الشيء نفسه مع من تشاء؟

لكنّها تركت رأسها في البيت ذلك اليوم مما أتاح لابنتها الولوج إليه، فمن سيفعل؟

كل أمرئ يحوم حول رأسه طيلة فترة انقطاع التيار المغذي، بل بعضهم صنع خزائن بأقفال محكمة خشية أن يتلاعب أحد أطفال العائلة برأسه أثناء غفوة أو سهو، فالجميع يعرف أن أي اختراق للرأس من قبل شخص آخر غير الجهات المختصة قد يتسبّب بخلل في البرمجة، الأمر الذي ينتج عنه القبض على الشخص وإيداعه في أحد سجون التربية العقلية في حال اُكتشف الأمر، هذا إن لم تكلّفه خسارة رأسه إلى الأبد.

ثم ماذا ستفعل برؤوس الآخرين؟!

حتى إنِ استطاعت الحصول على أحدها، فهي تعرف طريقة تفكير من يحيطها من الجيران،

فضلاً عن أفراد عائلتها.

"لا أظن فيها ما يستحق"، سخرت من نفسها وهي تنظر إلى الأسلاك المتشابكة كشبكة عنكبوتية تعجز عن فهم تداخلها. تلفّتت حولها تبحث في سطح الدار عما يمكن أن يساعدها على تسلق جداره لترى أبعد مما يظهر فوق السطح.

لم تقع عيناها سوى على آجرة لا يتعدّى ارتفاعها عشرين سنتيمترا في إحدى الزوايا: ربما تفي بالغرض!

انقضّت على الآجرة لترفعها بكل ما أوتيت من قوة، سبقها لهاثها إلى موضع بمحاذاة السياج حيث جلست لحظات تلتقط أنفاسها، ثم وقفت واعتلَت الآجرة،

رفعت كعبي قدميها حتى استندت على أطراف أصابعهما، ورغم أن رأسها ارتفع عن مستوى السياج قليلا، ألّا أنها ما زالت عاجزة عن رؤية الكثير.

لعنت جسدها الذي تحوّل إلى شوال من الشحوم تُعيق حركتها، وقررّت في سرّها أن تتخلّص من هذه الشحوم في أقرب فرصة: أحتاج إلى سلّم.

لكن السلّم في الأسفل، في الفناء خلف المطبخ، وهي لن تقوى على حمله إلى السطح، وحتى لو استطاعت سيثير ذلك تساؤل الزوج إنْ كان صاحيا، وربما الأولاد الذين يحشرون أنوفهم في كل صغيرة وكبيرة.

إذاً لا بدّ لها من مُعين، شخص خفيف الحركة قادر على نقل السلّم إلى الأعلى، وأيضا يجب أن يكون موضع ثقة!

كانت الابنة الكبرى قد اختبأت في غرفتها لتتجنّب مواجهة الأم بعد أن وشى بها أخوها، أمّا الصغير فلم يكن راضيا عن ردة فعل أمه التي لم تزد عن حركة قلقة تحسّست فيها موضع رأسها، نظرت بعدها إلى ابنتها نظرة غريبة يمتزج فيها التأنيب مع الاستغراب والتساؤل، وعوضا عن أن تعمل على تأديبها كما يحدث عادة في انتهاكات مماثلة، لاذت بالصمت وسرحت بأفكارها بعيدا. لمّا أمِنت الفتاة من العقاب، هرعت إلى غرفتها بينما ظلّ الصغير يقضم أظافره غضبا وهو يأمل أن تنال أخته عقابا يتناسب وحجم غرورها وسطوتها التي تمارسها عليه وعلى أخته الصغرى أثناء غياب أمهم عن دارها. فكم من مرة أشبعتْه ضربا أو منعته من البحث عن طعام في الثلاجة، وحين كان يشكو تصرفاتها إلى أمه بعد عودتها من العمل، كانت الأخت الكبرى تُخرسه بحجة دفاعها عن دارهم وحفاظها على الممتلكات أثناء غياب سيدة الدار، فهي الوصية الوحيدة التي يحق لها أن تُنزل العقاب بمن يخالف تعليمات هذه السيدة!

أدار الصغير مقبض باب غرفة أخته، فوجده مقفلا، لذا طرقه فجاءه صوتها مرتبكا: "منو"؟!

ضحك في سرّه، ولم يجب، كان يريد إثارة الرعب في نفس أخته ويجعلها تظنّ أن الأم هي من يقرع بابها لتنزل بها العقاب الذي فكّرت طويلا في شكله قبل أن تُقْدم على قرع باب غرفتها.

طرق الباب بقوة أكبر، فجاءه صوتها مرتبكا خائفا: لم أفعل شيئا يا أمي، لا تصدّقي هذا المخبول، تعلمين أنه يتخيّل أمورا ككل الأولاد، أنا لم أقترب من رأسك، لم أعبث به ولا...

ضحك بقوة، وما هي إلّا لحظات حتى فُتح مزلاج الباب وظهرت الأخت الكبرى بوجه احتقن غضبا، رفعت يدها مهددّة تصرخ: سألقّنك درسا يجعلك تبتعد عن طريقي إلى الأبد...

أخرج لسانه ساخرا، وانزلق بعيدا عن متناول يدها، فقفزت متوثّبة لإمساكه فإذا به يفلت ثانية ليحشر جسده النحيف خلف كنبة. ثارت ثائرتها وهي تتلفّت باحثة عن أية أداة تمكنها من اصطياد هذا الجرذ البشري، فلم تجد سوى عصا بلاستيكية تنتهي بإطار هي عربة الأخت الصغرى. التقطتها وهي تعضّ شفتيها متوعدة، وقبل أن تهوي بها على رأسه، صرخت البرتقالة باكية وهي تمسك طرف ثوب أختها: "عوفي العان عان لا تنكسر"... مااااااما...

استغلّ الولد انشغال أخته الكبرى، فترك موضعه الدفاعي خلف الكنبة وانسلّ خارجا، لكنها اعترضت طريقه بعصاها، فرفع صوته طالبا النجدة، واختلطت أصوات الصراخ وعمّت الفوضى قبل أن يُوقفها صوت الأم وهي تصرخ: كفى.

توقّفت الحركة فجأة، واصطف الثلاثة كجنود في حالة استعداد، حتى البرتقالة كفّت عن البكاء وصارت تصدر همهمات كنشيج مكتوم.

نزلت "آمنة" السلّم ببطء، اقتربت منهم وهي تلهث، رمقتهم بنظرة لم يستشعروا مدى قسوتها، فلم تكن أعينهم التي أطرقت أرضاً ترى في تلك اللحظة أبعد من أقدامهم. مدّت يدها نحو الأخت الكبرى تطلب منها تسليم العصا البلاستيكية، فألقتها الفتاة على الأرضيّة وانسحبت تجري نحو غرفتها، بينما اتّسعت ضحكة البرتقالة وهي تتلقّف لعبتها، وابتسم الولد لأمه ممتنّا لإنقاذها الموقف...

... وقبل أن يفتح فمه بأية كلمة، شاكيا أو متباكيا، قالت له بلهجة آمرة: السلّم في الفناء الخلفي، احملْه إلى السطح، أريد تبديل مصباح عاطل.

استغرب الطفل طلبها فتساءل ببراءة: ماما... لن يحتملك السلّم... أنت ثقيلة!

عاجلتْه حاسمة: إذاً ستساعدني أنت.

هرع نحو المطبخ تتبعه عيناها، تراقبانه بمشاعر متضاربة تُفكّر: هل حقّا سيكون هذا الطفل ذو الاثني عشر عاما عوناً لي بما أنوي فعله؟

لكنْ هل لديها فكرة عما ستفعله؟!

16

"ستُصبح مهندسا حين تكبر".

هذا ما كانت أمي تردّده دائما في سنواتي الأولى، حين كانت تراني منشغلا بتشكيل مكعباتي الملوّنة لأصنع منها بنايات بأدوار كثيره دون غرف.

لم أكن أعارضها، فلم أعرف تماما ماذا يفعل المهندس أو ما هو عمله سوى ما عرفته فيما بعد من خلال كتب الدرس من أنه يضع الخرائط للدور والبنايات والشوارع، وهذا ما لا يدخل ضمن اهتماماتي.

كبرتُ، لم أعد أشتري مكعبات الميكانو، وما كان لديّ منها أعطيته لأختي الصغرى لتصنع منه غرفة بأثاث لدميتها، فمذ وقعت عيناي على اللون الخاكي للجنود البلاستيكيين، وأنا أدمنُ شراء مجموعات منها. في الغالب، حين أرافق أمي إلى السوق لمساعدتها في حمل الأكياس، كنت أصرّ على الحصول على مكافأة، عادة ما تكون أحد هذه الأكياس البلاستيكية والذي يضم ثلاثة أو أربعة جنود لا تتعدّى أطوالهم أصابع أبي، تلتصق أسلحتهم بالملابس المرقطة التي تُغلّف أجسادهم. مرة بعد مرة أصبح لديّ جيش من الجنود، يصل عدد أفراده إلى 40 جنديّا، بأحجام مختلفة، ينصاع جميعهم لأوامري، أقوم بتقسيمهم إلى ثلاث أو أربع فرق، وأصنع لهم الخنادق والسواتر لأبدأ حربا أضع أنا لها خطط الدفاع والهجوم وأشاهد جنودي الأبطال وهم يقاتلون بضراوة، يسقط بعضهم قتيلا أو جريحا، ينتصر بعضهم ويُهزم آخرون، وفي النهاية، أنا من ينتصر، فأنا القائد، والقائد ينتصر دائما كما تردّد الأناشيد التي يبثها التلفاز.

بالطبع عرفتم الآن، أنا الصبي الوحيد ضمن عائلتي التي تضم أختي الكبرى، المزعجة والمتنمرة، وأختي الصغرى، برتقالة أبي المدلّلة. كوني الولد الوحيد للعائلة

لم يمنع أبي من أن يكرّس اهتماما أكبر لأختيّ، رغم أن الكبرى فاشلة والصغرى غبيّة، بينما أنا الوحيد المتفوق في دروسه ضمن عائلتي الصغيرة. وليت الأمر ينتهي عند الدلال، فأبي يحمّلني كل شقاوة تحصل في البيت حتى لو لم يكن لي دور فيها، وفي النهاية، أنا أيضا من ينال العقاب ضربا أحيانا وسيلا من السبّ والشتم في أغلب الأحيان. وكلّما ازدادت شدّة عقاب أبي وتعددّت الأسباب، زادت رغبتي بإيذاء أُختيّ بطريقة أو بأخرى، فيغدو ألم العقاب أخفَّ وطأة حين أستمتع بمشاهدة أختي الكبرى تنتفض وتصرخ كالمجنونة أو أتلذّذ بمشاهدة دموع البرتقالة تختلط مع مخاطها، ناهيك عما تخلّفه الشقاوة من تدمير لأغراض أختي الكبرى أو ألعاب أختي الصغرى.

خلال ساعات القطع المبرمج يتوقف العبث، أشغل نفسي بالدراسة لأكون قريبا من أبي الذي يغادر غرفته في مثل تلك الساعات أحيانا، ليتخذ مجلسه بيننا، يُطلق كلمات غير مفهومة من حنجرته عادة ما تقابلها أمي بسخرية من قرقرته التي تزعج الآذان.

حين ينتهي القطع ونسترد رؤوسنا، الوقت الذي ينتظره معظم الناس للقيام بأشياء مفيده، يهرع أبي إلى غرفته للنوم، كأنه اتّخذ قرارا ألّا يفعل شيئا مفيدا في حياته، أو ربما ليتجنّب لسان أمي الذي لا يتوقف عن تقريعه حين تستردّ رأسها.

رغم حبي الشديد لأمي، إلّا أنني كنت أتمنى في قرارة نفسي لو دافع أبي عن نفسه أمام هجماتها المتكررة، فلم أفهم حتى الآن لماذا يظلّ صامتا كأنّ بينهما اتّفاقا سريّا يجيز لها التحكّم بكل شيء بينما يظل هو مركونا كقطعة أثاث.

في العام الماضي، أكملت المرحلة الابتدائية، وها أنذا في سنتي الأولى من المدرسة الثانوية حيث يعمل أبي مدرّسا للتأريخ. بالرغم من كوني ابناً لمدرّس، هو بحد

ذاته امتياز سيمنحني بعض الزهو على بقية الأولاد، إلّا أن وجودي معه ضمن مدرسة واحدة أقلقني كثيرا في بداية الأمر، ظنّا مني بأنه محطّ سخرية للطلبة والمدرسين، شأنه في البيت، مما سيجعلني بالتأكيد هدفا لسخرية الزملاء وتنمّرهم. حاولت إقناع أمي بتسجيلي في ثانوية أخرى، لكنّها أصرّت على التحاقي بنفس مدرسته لتتخلص من عبء القلق حول ذهابي وحدي إلى المدرسة في فترة انتشر فيها خطف الأطفال حتى صار لزاما أن تُشرك العائلات أولادها وبناتها في خطوط النقل الخاصة لضمان وصولهم إلى مدارسهم وعودتهم إلى بيوتهم بأمان. هكذا استسلمت للأمر وأنا أدعو الله ألّا أكون أحد طلبة الصفوف التي يُشرف على تدريس مادة التأريخ فيها، فهناك أكثر من مدرّس لهذه المادة في المدرسة وعسى الله أن يبعدني عن مواجهة الإحراج جرّاء أيّ تصرّف يبدر منه أثناء الدرس، ربما يثير سخرية الطلبة، كأن يغفو أثناء جلوسه أو يتحدث حديثا غير منسجم أثناء ساعات القطع المبرمج، كأنه بثٌّ متقطع لبرنامج قديم، من تلك التي تعرض بالأسود والأبيض في برنامج "من أرشيف الذاكرة".

لم يكد اليوم الأول على التحاقي بالمرحلة المتوسطة يمر، حتى أدركت بأن الأمور تجري بشكل مختلف تماما عما كنت أعرفه في المرحلة الإبتدائية. هناك، كُنّا أطفالا، ولم يكن من داعٍ لحجب رؤوسنا، بل كانوا يحرصون على إبقائها طيلة فترة الدوام لكي نتمكن من حفظ أكبر قدر ممكن من الدروس والأناشيد الوطنية. هكذا كانت لدينا فسحة من الوقت لنلعب في ساحة المدرسة، لنتعرف إلى بعضنا أكثر، نتدافع، نضحك، نلعب الكرة، نتعارك، يسقط بعضنا أرضا، يضحك بعضنا من الآخر، نجري، نتسلق سياج المدرسة لنسرق ثمرات النارنج من الدور المجاورة، أشياء كثيرة كنا نفعلها حين كانت لنا طفولة. أما في المرحلة المتوسطة، فقد أصبحنا في عداد الشباب أو الرجال الذين لا يجب أن يحملوا

رؤوسا على أكتافهم طيلة الوقت، فما خزنته الذاكرة من أيام الطفولة يكفينا ولا نحتاج إلى ذاكرة أكبر من "ذاكرة الوطن": صندوق يتم توزيعه مجّانا على كافة مدارس القطر وجامعاته ابتداء من المرحلة المتوسطة وانتهاء بالمرحلة الجامعية، ويعمل على مولّد كهرباء ومولّد آخر للذاكرة القصيرة المدى التي تكفي لبثّ المعلومات للطلبة دون أن تكلّف الأساتذه عناء تدريسهم.

قد تسألون: ما نفع المدرّس إذاً، في هذه الحالة، إن كان هذا الصندوق المبتكر هو الذي يتولّى توزيع المادة على الطلبة؟

أنصحكم بألّا تطرحوا سؤالا كهذا كي لا تنالوا نفس المصير الذي نلتُه، فأنا مدفوعا ببراءة الطفولة وما اختزنْته من ذاكرتها، طرحت هذا السؤال على مدرس اللغة العربية في أول حصّة من حصص اليوم الأول في الفصل الدراسي، فكان جزائي لطمة على فمي أفقدتني توازني حتى سقط نصفي الأعلى مرتطما بحافة مقعد موازٍ ولم أعد أتذكر سوى ارتجاج كرش الأستاذ الذي بدا من بين فتحة المقعد، وارتجاف ساقه اليمنى وهي تدكّ الأرض كمن يستنجد من حريق شبّ.

- من ذا الذي يتجرأ على التعدي على ذاكرة الوطن؟

_ أنا لم... يا أستاذ... أنا فقط...

- يجب أن ترى المدير ليبتّ في أمرك، فوجودك خطر على زملائك الطلبة.

بدت الرحلة إلى غرفة المدير طويلة جدّا، مررت خلالها بنوافذ مفتوحة تنطلق منها أصوات عديدة تمتزج في نبرة واحدة، هي تلك التي يبثها صندوق ذاكرة الوطن. كنت أتلكّأ بين مسافة وأخرى، أتوقف قليلا، أحاول أن أخبر الأستاذ الذي يقتادني أسيرا بأني ابن الأستاذ... وقبل أن أكمل جملتي كان يعاجلني بضربة على الرأس تطوحني فأتماسك. هل أبكي وأتوسل إليه علّه يرأف بحالي،

فكل ما يقلقني هو أن أدخل غرفة الإدارة لأجدني بمواجهة أبي الذي سيجد حتما سببا آخر لضربي. هل يستحق السؤال الذي طرحته كل هذا العقاب؟

ـ من علّمك أن تسأل؟

رشقني المدير بجملته التي انهالت عليّ كالسياط، وهو يعدّل نظارة طبية استقرّت على أنف أفطس، بينما بحثت في غرفة الإدارة فلم أجد أثرا لأبي، الحمد لله، لا يهم إذاً نوع العقاب: أعتذر يا أستاذ، لم أكن أعرف أن الأسئلة ممنوعة... لن أسأل ثانية!

ذلك النهار، يتذكّر الصبي الذي انطلق صباحا متفائلا إلى مدرسته الثانوية، فيما تتقافز حوله ثلاث عشرة سنة تزفّه إلى باب الرجولة، كيف عاد كجندي مهزوم يجرجر قدميه تحت ثقل الخيبة وحقيبة الظهر الممتلئة بكتب متهرئة استلمها من مخزن المدرسة. لم يكن يتصوّر بأن أول يوم دراسي له في المرحلة المتوسطة سيكون مكلّلا بالإهانات واللطمات وركلة من المدير قذفته خارج غرفة الإدارة. كان واضحا أنهم لم يعرفوا أنه ابن أستاذ التأريخ، ربما لم يخبرهم الأب بأن ابنه انضمّ حديثا إلى المدرسة، أو ربما تعمّد عدم إخبارهم كي لا يناله إحراج ما من جراء سلوك ابنه المشاكس. لكنه لم يكن ينوي أن يكون مشاكسا، بل أضاف بعض التغيير إلى تسريحة شعره حين أراحه إلى جانب فرق على يمين الرأس، عوضا عن أن يترك غرّته تسترسل على جبينه كطلبة المرحلة الابتدائية. كان مستعدا لولوج مرحلة الرجولة وهو على أعتاب الثالثة عشرة حتى أمعن في تلميع حذائه وارتدى قميصا أبيض وبنطالا أسود من القطن ليبدو أكبر سنا، وأيضا ليجعل أباه يشعر بالفخر وهو يقدّمه إلى زملائه المدرسين، شابا مهندما. أما أن تتم معاقبته بقسوة لأنه طرح سؤالا بديهيا يمكن أن يقفز إلى ذهن أيّ طالب، فلم يخطر بباله أن أمرا مماثلا قد يحدث في المرحلة المتوسطة التي لطالما سمع من طلبتها المتبجحين بأنهم يعاملون فيها كرجال، مما

جعله يعد الأيام لاجتياز المرحلة الابتدائية كي يغدو رجلا، كأي رجل له الحق في أن يطرح الأسئلة.

وقف على عتبة باب الدار، وكل ما يرجوه ألّا يلتقي أمه لحظة دخوله لأنها ستفهم بمجرد أن تنظر إلى وجهه، وستسأله لمَ عاد وحيدا دون أبيه، سيخبرها بأن الدوام لم ينتظم بعد، فهو اليوم الأول ولم تكتمل كل الحصص، وبالطبع يجب أن يكمل أبوه يوم عمله كمدرّس.

وماذا إنْ... إنْ... لم يعد يتذكر... فقط حركات آلية يؤديها ككل مرة حين تصادر رؤوسهم أثناء ساعات القطع المبرمج... يبدو أن ساعة القطع قد حانت.

دفع باب الدار بهدوء، دلف الممر الذي ينفتح على صالة صغيرة، كانت أخته الكبرى تجلس كتمثال دون رأس، تمدّدت ببطء على الأريكة واستسلمت للرقاد. لم يجد أثرا لأمه، يبدو أنها ما زالت في عملها، أما البرتقالة فكانت تجلس على الأرض قريبا، من موضع أختها، تعبث بدميتها المقطوعة الرأس. ألقى حقيبته أرضا بطريقة آليّة، خلع حذاءه واتخذ طريقه نحو الثلاجة باحثا عن طعام يسد جوعه. وبمجرد أن قبض على مسند بابها وجذبه، أصدرت أخته الكبرى قرقرة موبّخة...

_ لا تلمس... أي... طعام.

- لكني جائع، وماما وبابا... لن يعودا قبل الثانية.

_ ستعود ماما قريبا، لم تذهب... إلى عملها اليوم، بل ذهبت إلى الطبيب.

- أهي مريضة؟ كانت بخير... اليوم صباحا!

_ لا تحشر أنفك، هي أمور نسائية.

- لا يهم، حضّري لي طعامي... لا أستطيع الإنتظار.

_ ألا يمكنك... أن تصبر ساعة؟

- لا، لا أستطيع، إنْ لم تسارعي لتحضير طعامي سأفعل أنا، سأخبر ماما بأنك لم تفعلي.

_ أكرهك.

نهضت متثاقلة، حملت نفسها تجاه المطبخ، وقبل أن تصل بابه ندّت عن أخيها صرخة استغراب أجفلتها: ما هذا؟

التفتت نحوه بصعوبة، كان يقف قرب المنضدة في الممر المؤدي إلى المطبخ حيث تعوّدت الأم أن تعدّل هندامها حين تنوي الخروج وتعلق عباءتها على مشجب قرب مرآة مزجّجة قاتمة حين تعود.

وقف الولد متجمدا وهو يشير إلى كتلة ملفوفة بشال أسود: هل خرجت الماما دون رأسها؟

تنقلّت نظرات الفتاة بين أخيها والكتلة التي تتكوّم على المنضدة أسفل المرآة، اقتربت بهدوء، مدّت يدها لتزيح الشال، فصرخ الولد: لا تلمسي شيئا، قد يؤذي ذلك الماما!

ذلك اليوم، عادت "آمنة" إلى دارها مسرعة، بعدما فوّتت الفحص رغم انتظارها لأكثر من ساعتين في غرفة السكرتيرة أمام باب الطبيبة، فإدراكها بأنها خلّفت رأسها في الدار وخرجت أثار الرعب في أوصالها خشية أن تكتشف السلطات ذلك. كانت تسير في الشارع مطرقة تلف شالها حول رقبتها بإحكام كي لا يبدو من وجهها شيء، فلا يلاحظ المارة أنها دون رأس. حمدت الله كثيرا، إذ لا أحد من المارة انتبه لذلك كأنهم جميعا كانوا يسيرون دون رؤوس فلا يلاحظ أحدهم الآخر، ولم يكن في ذلك عزاء لها، بل ظلّت تؤنّب ضميرها على إهمالها.

لكنْ كيف حدث أن خرجت قبل أن تنتهي ساعات البرمجة وتعود الرؤوس إلى أصحابها؟، ... ثم كيف حدث أن عاد رأسها إلى مكانه فوق المنضدة أسفل المرآة حيث تعلق حجابها وعباءتها عادة؟

فكّرت بأنها محظوظة لأن أحدا من الجهات الرقابية لم ينتبه إلى هذا الإهمال، فلا يوجد تهاون أبدا في هذا الأمر. كيف لو أن أحدا حاول العبث برأسها؟ سيعرفون ذلك، وسيكون مصيرها السجن أو ربما الموت إن نتجت عن الأمر عواقب غير محسوبة.

أزاحت الحجاب قليلا، تحسّست الرأس، وبحركة آلية أعادته إلى مكانه على الرقبة وهي تتلفّت يمينا ويسارا خشية أن يكون أحد قد شاهد فعلتها.

استعادت هدوءها ثم دلفت إلى المطبخ لتستغل الساعتين في تحضير الأكل قبل أن تحلّ ساعات البرمجة ثانية، لكن هذا الهدوء لم يلبث أن تلاشى حين سقط عليها الخبر كالصاعقة: أختي الكبرى عبثت برأسك أثناء غيابك.

التفتت إلى الصبي متشكّكة، فهو عادة ما يبتكر القصص والأساليب التي تدين أخته هذه وتثير غضب أبويها ضدها، لكنه أمسك بكمّها بإلحاح وهو يردّد: ألا تُصدّقين ما أقول؟ لقد شاهدتها ترفعه من على المنضدة أسفل المرآة وتضعه على رقبتها بدلا من رأسها الفارغ، حتى أنها أزاحت الوشاح الأسود! ألمْ تنتبهي إلى أنه كان معلّقا ولم يكن ملفوفا على الرأس كما تركتِه؟

رنّت كلماته في رأسها كضربات مطرقة حتى أصابها الصداع وكادت أن تفقد توازنها، صرخت به أن يغرب عن وجهها في هذه اللحظة، فانسحب راكضا باتجاه غرفته وهو يتوقع أن يتحول هذا الغضب إلى أشد أنواع العقاب التي ستترك أخته الكبرى طريحة الفراش ليومين متتاليين، لكنّ شيئا من هذا لم يحدث!

17

ما زال ذاك اليوم ماثلا أمام عينيها، حين حضرت لجنة المراقبة لإحصاء الرؤوس وتسجيل أسماء أصحابها ومنح كل واحد منهم رقما يظلّ محفوظا في سجلات سرية لا يسمح لغير هذه اللجنة الاطلاع عليها.

لم يكن أحد قد سمع سابقا عن برمجة الرؤوس وجدولة خزين الذاكرة، لكن كثرة الاختراقات والمؤامرات التي أرهقت رجال الأمن منتصف التسعينات قادتهم إلى التفكير بطريقة تمكّنهم من اختراق ما يحدث في رؤوس المواطنين وإجهاض المؤامرة قبل أن تحدث.

لذا، من أجل مصلحة المواطن التي تشغل النظام دائما، تم التعاون مع خبراء أجانب لاختراع منظومة لبرمجة استعمال الرؤوس من قبل المواطنين في الفترات التي يحتاجون اليها من أجل الاستمرار في العيش.

ماذا يطلب المواطن أكثر من الاستمرار في العيش بسلام؟

ما جدوى التفكير في كل ما يدور من حوله؟

لم يكن الهدف من هذا المشروع التحكم في ذاكرة المواطن، كما ذكر القائد في خطبته التي بثّتها كل قنوات التلفاز ذلك اليوم، وإنما حمايته من التورّط مع المغرضين الذين غصّت بهم السجون وأرهقوا الجلادين.

ما زالت تتذكّر ارتعاشة شاربيه والتماعة دمعة تتأرجح في طرف عينه، يده الكريمة التي ارتفعت لتؤدّب الدمعة، وصوته الذي غاص في حنجرته وهو يفتعل الحزن على أبنائه الذين ضلّوا طريقهم.

ليس ذنبهم، هذا ما قاله وكرره في خطابه، فأبناء بلده لا يمكن أن يكونوا متآمرين، إنّما هي القوى الأجنبية التي تروم تدمير هذا البلد العظيم، فتسلك كل السبل لتلويث نفوس أبنائه بالمؤامرة، لذا، انطلاقا من مبدأ الحرص على سلامة المواطن وخشية انزلاقه في ممرّات ظلامية لا يدرك أنها ستقوده إلى سيف الجلاد، ومن مبدأ الإحساس بالمسؤولية تجاه الشعب، كان لا بدّ من إيجاد طريقة لقمع المؤامرات، وهي بعد في مهدها.

ختم خطابه الحنون بتأكيد حرصه على سعادة المواطن الذي تجدّ الحكومة من أجل توفير الطعام والشراب له، إضافة إلى ما تيسّر من الخدمات الطبية والكهرباء والوقود وكل ما يساعده على أن يبقى حيّا...

فماذا يريد المواطن أكثر من أن يعيش بسلام؟!

- سيسرقون آخر ما تبقّى لدينا يا "آمنة"، الذاكرة!

تتذكّر جيّدا ما قاله زوجها وهو يستمع إلى الخطاب حينها، كان يبكي بحرقة بينما ظلّت هي ذاهلة تحاول استيعاب هذا المشروع الذي سيطيح برؤوسهم دون الحاجة إلى جلّاد. منذ تلك اللحظة، لم يعد كما كان أبدا، إذ تحوّل إلى كتلة من اللحم، يستعمل ما فيها من تجاويف لغرض الأكل وبقية الفعاليات الحيوية، ينام أغلب الوقت، ولا يتكلم إلّا قليلا، وإنْ تكلّم فذلك فقط لكي يناكدها أو يؤنّب أحد أطفاله. كان ذلك بعد ولادة ابنتهم الصغرى بسنة تقريبا، ولو حدث الأمر قبل ذلك لما وُلدت أصلا، فقد صار الزوج مجرد جار لها في الفراش، وهذا أكثر ما أسعدها في الأمر.

على كل حال، لم يكن رأسه هو ما يقلقها تلك اللحظة، فهي مؤمنة بأن هذا الرأس لطالما استقرّ بين فخذيه...

بل أقلقها رأس أخيها "نبيل" الذي يمتلئ بمعارضة النظام، بكتاباته التي كان يُخفيها حتى عن زوجته ولا يشارك بها إلّا قلائل، هي أحدهم، وأيضا كتبه التي تضم أسماء العديد من المفكرين والفلاسفة العرب والأجانب ممن يحملون أفكارا لا تتفق وفلسفة النظام.

تتذكّر كيف ألقمت أمها التنّور بعض تلك الكتب حين كان أخوها هذا طالبا في الإعدادية، ثم صراخه واحتجاجه حين عاد فاكتشف المحرقة التي أودت بحياة من يعتبرها بمثابة أولاده.

كان يجمع مصروفه اليومي ويحرم نفسه من كل ملذّات الحياة من أجل شراء الكتب، إلّا أن أحد شباب المنطقة ممن كان صديقا له جرى اعتقاله تلك السنة، فأصيبت المنطقة بهستيريا، نتج عنها تصاعد اللهب من معظم الدور التي جاهدت لإحراق كتب أولادها لحمايتهم من نهم فرق التفتيش.

أقلقها أيضا أمر أخيها الآخر المغرم بخزن السلاح والذي قضى معظم وقته بمناورة فرق التفتيش في العام 1991، عام الانتفاضة، كما صار يطلق عليه فيما بعد، حين كان يدفن سلاحه تحت بقعة في أرض البستان، وحين يصل إلى علمه اقتراب فرق التفتيش التي تداهم البساتين، كان ينقله ليدفنه في أرض حديقة الدار، وهكذا استطاع إنقاذ قطع السلاح التي يمتلكها والتي لا تعلم هي سببا لاحتفاظه بها، فهو لا يستطيع أن يشهر مسدّسا مائيّا في وجه السلطة...

فما الداعي لأن يحمّل نفسه وعائلته خطر الاحتفاظ بكل هذا السلاح؟ هل يتوقّع أن يأتي يوم يستخدمه فيه؟ ماذا إنْ توغلّت فرق المراقبة في ذاكرته وعلمت بالأمر؟

اتّصلت بإخوتها على الفور، قبل أن يتمّ تطبيق البرمجة لتطمئنّ إلى أنهم سيجدون حلّا لأوضاعهم، فذاكراتهم تكفي لتوريط العائلة بل العشيرة بأكملها ولن ينجو عندها أحد من الاعتقال إنِ اكتشفت السلطة ما يخبئونه.

قبل أن يرنّ الهاتف في داره، كان "نبيل" قد قطع منتصف المسافة متّجها إلى شمال البلد، وعبر الجبال سيجد من يقوده إلى تنفيذ حكم بالغربة.

أما الآخر فطمأنها بأنه تخلّص من كل السلاح مذ صار أبا، إضافة إلى أن المراقبة ستبدأ من اللحظة التي يتم فيها تسجيل الرؤوس ودمغها بأرقام أو شيفرات، والمخزون من الذاكرة تكرّم القائد بالعفو عن النظر فيه.

ما أسرع تدافع الذكريات، تحتل الدقائق وتشكّل شلّالات من القلق تطوي الذهن في جريانها حتى لا يكاد يستقر على فكرة.

الوقت يجري، قريبا ستحين ساعات البرمجة، سيختفي هذا الرأس اللعين الذي شغلني القلق بشأنه طيلة اليوم.

أريد فقط أن أفهم كيف حدث ما حدث؟ أربع ساعات مرت، هل اكتشفت لجنة المراقبة أنني فرّطت برأسي أم لا؟ هل عبثت ابنتي به أم لا؟

هل وهل وهل...؟

ربما أبالغ بقلقي، فكيف للجنة المراقبة أن تشرف على متابعة خمسة وعشرين مليون رأس؟!

كأنها في مكان آخر، عالم آخر من تلك العوالم التي لطالما عشّشت في رأسها، اتّسعت الغرفة لتمتدّ إلى صحراء بلا حدود، لم تعد تشعر بوجود الأثاث العتيق ولا بالمروحة التي كان يُزعجها صريرها في الآونة الأخيرة. بالكاد أنهت تحضير الطعام لأولادها ودخلت غرفتها لتلملم ما تبعثر منها، هي بحاجة إلى أن تتماسك

وتفهم ما حدث. جلست دون شعور بحركتها، أسندت ظهرها إلى حافة سريرها، شخصت عيناها إلى المروحة فوق رأسها، لا يكفي ما تحرّكه من هواء لإزاحة قطرات العرق التي تتصبّب من وجهها لتبلّل حافة الثوب الملاصقة لصدرها ثم تنزل لتجد طريقها في مجرى ضيق بين نهديها الضخمين.

التفتت يمينا نحو موضع زوجها في السرير: الحمد لله، لم يأتِ للنوم.

كانت بحاجة للاختلاء بنفسها لفترة قصيرة، ليس لديها الكثير، فبعد نصف ساعة ستعود الكهرباء وتدور مبرّدة الهواء، الأمر الذي ينتظره زوجها ليأوي إلى فراشه في قيلولته المعتادة التي تمتد حتى الغروب أحيانا. هي لا تستطيع التفكير حين يكون إلى جانبها حتى لو كان نائما، فمجرد النظر إلى ملامح وجهه المتكورة يجعلها تشعر بالشلل التام، كأن غضون وجهه ترتفع لتشكّل خيوطا عنكبوتية تتخلّل رأسها وتلتفّ حول عقلها لتعيق استخدامه. لو كانت تستطيع فقط أن تتّخذ غرفة نوم أخرى، لكن كيف وأين والدار المستأجرة لا تضم أكثر من غرفتي نوم، واحدة لهما هي وزوجها، والأخرى للأولاد؟

لعنة الله على الأفكار التي تبدأ من المهم لتمضي بك في طرق لم تكن تنوي السير فيها...

أيّة دار وأيّة غرفة الآن؟

فكّري في المصيبة التي أنتِ فيها؟

أو بمعنى ما حدث؟!

كيف استطاعت ابنتي أن تستبدل رأسها برأسي دون أن ينتبه أحد لذلك؟

هُم قالوا إن أية مخالفة تظهر فورا على شاشة في غرفة المراقبة حيث يتحدّد الموقع فيتم إيقاف الرأس عن العمل فورا ريثما يتمّ التحقيق في الأمر.

تلمّست موضع رقبتها، صعدت أصابعها قليلا لتلامس ذقنها: ما زال في مكانه!

استجمعت قوّتها لتدفع أصابع اليد باتجاه مواضع أنفها وعينيها، تلمّست خدّيها وجبينها، رفعت كفّها ببطء، وفجأة لطمت جبينها بقوة حتى شعرت بحرارة لسعة كفّها التي خلّفت ألماً: كيف غاب عني هذا؟ كيف كيف؟ إذا كانت ابنتي قد استعملت رأسي واستبدلته برأسها كما قال أخوها، فهذا يعني أنه كان يعمل، هم لم يُسجّلوا مخالفة لأن الرأس كان يعمل على رقبة ابنتي، أيْ أنّهم لا يعلمون أيّ جسد يستخدم الرأس، فهذا لا يظهر في غرفة المراقبة، كل ما يهمّهم هو الرأس، وطالما كان يعمل فلا غبار عليه.

التمعت الأفكار في رأسها، تدفّقت سيلاً جارفا من الاكتشافات، ككل مبتدئ ظنّت أنها الوحيدة التي أدركت الأمر، فكل ما أرهقوهم به من تعليمات حول ضرورة حفاظ كل مواطن على رأسه دون أن يسمح لآخر العبث به هو غير صحيح، فقط ترهيب، كالعديد من التعليمات الأخرى. حقيقة الأمر إنّ الرأس يحمل فقط الشيفرة التي يقابلها رقم في منظومة البرمجة، أما الجسد فهو كتلة من اللحم والفعاليات الحيوية التي لا تهمّ أحدا، إذاً لا فرق إن وُضع هذا الرأس على جسدها أم على جسد حمار، لن يكتشفوا ذلك. مع هذا، عليها أن تُخضع اكتشافها للتجربة، أن ترتدي رأس زوجها مرة أو رأس أحد أبنائها لترى إن كان ذلك سيشكّل فرقاً.

يمكنها أن تشحن رأسها بالذاكرة حين تُستعاد الرؤوس وتضع رأس زوجها بدلا منه أثناء القطع معتمدة على ما فيه من خزين، فتحافظ على مخزون رأسها من الذاكرة وتكون واعية طيلة اليوم لتتمكّن من مراقبة ما يدور حولها وقد تتمكن من فهم ما يحصل في هذا العالم و: أين هم الآن منه؟ فمنذ أُقرّت برمجة الرؤوس، أواسط التسعينات، وهُم مغيّبون تماما عن كل ما يُحيط بهم، لا يدركون أكثر من حاجاتهم اليومية وما يجري في البقعة التي يحتلونها من أماكن عملهم، لا

يعرفون سوى الطريق إلى العمل والسوق، لا يستطيعون التواصل مع أهاليهم إلّا لماماً. لم يتبقّ لديهم إلّا التفكير في كيفية تدبير خبز يومهم، تعديل الميزانية كل شهر لتتلاءم مع صعود الأسعار المستمر، احتياجات أولادهم للمدارس، والاهتمام برؤوسهم.

بعضهم غالى بهذا الاهتمام ليثبت للجنة المراقبة ولاءه وإخلاصه فوضع رأسه في صندوق حديدي واكتفى بمراقبته، أما جارهم المتقاعد، فقد خصّص غرفة لرؤوس زوجته وأولاده وكنّاته ليشرف بنفسه على توزيعها حين تنتهي ساعات البرمجة ويصبح بإمكانهم استخدام رؤوسهم. وبما أن المتقاعد ينام مبكّرا، فقد تكرّر أن ينسى توزيع الرؤوس قبل نومه مما حرم ابنه من ممارسة حقه الشرعي مع عروسه، الأمر الذي أغضب العروس وجعلها تعود إلى بيت أهلها متّهمة زوجها بالعجز الجنسي، وغيرها العديد من القصص الساخرة حول نساء تفنّن في تجميل رؤوسهن... ووو...

- هنالك خيط مفقود، لا بدّ من إيجاد طريقة آمنة لفعل ذلك يا "آمنة"!

18

على مدى سنتين تقريبا، كان يجاور زميله في المكتب الذي يقع خلف مكتبه تماما لكنّه لم يرَ وجهه أبدا. هكذا تمّ ترتيب المكاتب، أن تكون متعاكسه بحيث يتقابل ظهره مع ظهر زميله ويفصل بينهما حاجز من الزجاج. كل ما يعرفه عن زميله هو صوت سعاله بين فترة وأخرى والأصوات التي يصدرها أثناء جمع أغراضه عندما يحين موعد مغادرته العمل، إضافة إلى وقع خطواته حين يخرج من الباب المعاكس، حيث يوجد بابان متقابلان للغرفة التي تضمّ مكتبين فقط، باب لدخول وخروج العميل (س) وآخر مشابه للعميل (...)، فهو لا يعرف حتى شيفرة اسمه.

لقد أحكموا قواعد العمل التي تهدف إلى عزل كلّ عميل عن الآخر تحسبّاً لتأثير أحدهما على الآخر من ناحية ولكي يضمنوا ولاء العملاء لقياداتهم فقط، ففي حال لاحظ أحد العملاء خيانة أو تصرّفا مشكوكا به من قبل زميله في المكتب، سيبلّغ عنه فورا، فلا يجمعه مع الزميل أي رابط عاطفي أو أخلاقي من جانب، ومن جانب آخر لأنه يعلم تماما أن اكتشاف أية خيانة يعني أن يخضع كلا العميلين للمحاسبة.

أما عن علاقته برؤساء العمل، فهو لا يرتبط إلّا مع رئيسه المباشر، العميل (ي)، رجل في نهاية الخمسينات من عمره، يخفي بياض شعره بصبغ أسود كثيف، نادرا ما يراه بحلّة رسمية، كأنه وُلد بلفافات خاكية، شأنه شأن كل العاملين في منظومة البرمجة والذين أُجبروا على ارتداء الزيّ العسكري، ورغم علاقة العمل التي امتدّت لسنتين مع رئيسه، لم يستطع أن يكوّن فكرة عن هذا الرجل، سلوكه، أخلاقه، بل لم يرَ ابتسامته سوى مرة واحدة، حين سلّم العميل (س) كتاب شكر لكشفه منظومة تآمر في ذاكرة إحدى العوائل التي جمع

أعضاءها حديثٌ ناقم عن ابنها الشاب الذي جرى إعدامه أثناء محاولته التسلّل عبر الحدود.

وثمة زميله المناوب، الذي لا يعرفه أيضا... هل هو نفس الشخص أم عدة أشخاص يتبادلون نوبات العمل؟!

لم يكن يُسمح للمناوب بدخول المكتب إلّا بعد رحيل العميل (س)، وهكذا تظلّ المعلومات في متناول الجميع تحت عين السلطة، دون أن يجرؤ أحد العملاء على التحكّم بها.

19

وحيدة على سطح الدار...

تحاول أن تفهم سر هذه الأسلاك المتشابكة التي تتهادى تحت ثقل الذاكرة: كيف استطاعت احتمال كل ما يمرّ خلالها من مشاهد تراكمت عبر السنوات!

من المؤكد أن كل ذاكرة مرّت من خلالها كانت تنطوي على جرح أو جراح، ألم، موت، بكاء، أو انتظار لغائب.

حتى الذكريات المضمّخة بعطر الزمن الجميل أو "زمن الطيبين"، كما صار يُطلَق عليه للمزاح، هي مشروع جرح يتفتق عن حنين لأيام غادرت كحلم ليلة صيف.

... الخيط هنا في لوحة المفاتيح هذه.

كانت هذه اللوحة مثبتة داخل صندوق خشبي ثُبّت بدوره على ارتفاع مترين أعلى الحائط القريب من باب السطح، فلا يسمح بأن يكون أقل إرتفاعا لكي يكون بمأمن من فضول الأطفال، بل الكبار أيضا، فإذا ما أصابها عطب ما، فعلى صاحب الشأن الاستعانة بأفراد فرقة تقنية خاصة بلجنة المراقبة، فيحضرون عادة مع سلّم يمكنهم من الوصول إلى اللوحة.

ـ أنا أيضا أمتلك سلّما، سيُعينني ولدي على الصعود والوصول إلى لوحة المفاتيح.

سخرتْ من سذاجة أفكارها...

فهل الحل يكمن فقط في أن يكون لديها سلّم؟ ماذا إن تسلّقت واستطاعت الوصول إلى صندوق اللوحة؟ ما الذي ستفعله؟

ـ أرى ما في داخلها فقط، ربما ستأتيني الأفكار حين أكون قريبة منها، حين أكتشف ما يُخبئه هذا الصندوق الخشبي الذي يضم لوحة المفاتيح.

تطلّعت إلى المفتاح الصغير الذي تُخبئه في يدها اليسرى، هي نسخة سلمّتها اللجنة إلى رب الأسرة حين أنهت تثبيت الصندوق وتسجيل رقمه. ومنذ أن اعتزل زوجها مسؤولياته وعهد إليها بكل شيء، صارت هي الأمينة على مفتاح الصندوق مع أنه هو من وقّع على وصل الاستلام وعليه تقع مسؤولية أي عبث يمكن أن يطال الصندوق. لكنّه يثق تماما بزوجته "آمنة"، فهي حريصة إلى أبعد الحدود وجيدة في إدارة الأزمات والظروف، فضلاً عن ذاكرتها التي ما زالت تتقدّم على ذاكرته بالكثير والتي ستساعدها في الحفاظ على المكان الذي ستُودِع فيه المفتاح بينما قد ينسى هو ذلك.

قطع صوت ارتطام السلّم بباب السطح الطريق على أفكارها، في الثواني الفاصلة بين التفاتتها والباب، تفجّر الرعب في داخلها من أن تكون لجنة المراقبة اقتحمت الدار. تراجع وقع نبضات قلبها والتي خرقت سمعها وهي ترى ابنها ينوء تحت حمل السلّم وقد اتسعت عيناه هلعا من أن يكون صوت الارتطام قد أثار انتباه أحد أو ربما أيقظ أباه الذي يغط في قيلولته المسائية. ابتلع ريقه ليُذيب اعتذارا تجمّد تحت لسانه، كالحياة في اللحظة الفاصلة بين الهلع والكارثة.

اقتربت منه بهدوء حذر، ربّتت على كتفه مبتسمة وهي تشير له أن يضع السلّم أرضا ليلتقط أنفاسه، فلا يبدو أن أحدا سمع صوت الارتطام وإلّا لصعد الجميع إلى السطح، أو ربما تجاهلوا الصوت ظنّا بأنه حدث في مكان آخر، فمن حسنات زمن الرعب أن يغض الناس الطرف عن أي صوت خارج حدود المكان الذي يشغلونه لأنهم يدركون تماما بأن الشارع ملك للسلطة، والشارع كالحياة يمتلئ بالأحداث التي ليست من شأنهم، فحتى لو سمع هذا الصوت بناتها أو زوجها أو الجيران، فربما سيظنون أنه صوت ارتطام سيارة أو رصاصة غير طائشة، أو أي صوت هو ليس من شأنهم، ككل شيء أصبح ليس من شأنهم بعد أن قررت الحكومة إسعادهم بتخليصهم من عبء التفكير وأحمال الذاكرة.

أسند الصبي السلّم إلى حائط السطح بهدوء شديد متجنّبا حدوث أي صوت، زفر ليخمد لهاثا متقطّعا أعياه، ثم نظر إلى وجه أمه يبحث عن إجابة لما يحدث، فهو لا يعلم حاجتها للسلّم حتى الآن!

فهل تريد حقّا تبديل مصباح كهربائي عاطل كما أخبرته؟

إنْ كان الأمر كذلك حقّا، لمَ حذّرته من أن يعلم أحد بذلك أو أن يُحْدث جلبة؟

لماذا كلّ هذه السرية لتبديل هذا المصباح الكهربائي العاطل؟

قطعت عليه حبل التساؤلات حين أشارت إليه بإصبعها فاقترب منها، همست في أذنه: أريدك أن تضع السلّم هنا، قريبا منّي، ليكون تماما تحت صندوق المفاتيح.

قالت ذلك وهي تشير بيدها اليسرى ناحية الصندوق، فأدار رأسه ناحية اليسار حيث أشارت،

ومع أنه لم يفهم ما الغاية من ذلك سحب السلّم بهدوء، وضعه تحت صندوق المفاتيح ظنّا منه بأنها ستقوم بتبديل المصباح القريب من الصندوق رغم أنه متأكد من أنه ما زال يعمل ولا يحتاج إلى تبديل، لكنهم الكبار وما يشاؤون!

ـ كل ما أطلبه منك هو أن تحاول تثبيت السلّم بكل ما تستطيع من قوة بينما أتسلّقه أنا.

- بإمكاني تبديل المصباح يا أمي، فلا أظن أن السلّم سيحتمل ثقلك، أخشى أن تتعثّري فيصيبك مكروه، دعيني أفعل ذلك عوضا عنك.

نظرت إلى المصباح القريب من لوحة المفاتيح ثم حوّلت نظرها إلى اللوحة، فتحت كفّها اليسرى وبسطتها أمامه، فشاهد المفتاح الصغير يقبع في يدها. مع

أنه لا يعرف ماذا يعني ذلك، إلّا أنه بحاسة الفضول لديه شعر بأن الأمر أكبر من تبديل المصباح الكهربائي، وأن ما تحاول أمه فعله هو أمر يخص لوحة المفاتيح التي تُعتبر من المحرّمات حيث تلقّوا تعليمات مشدّدة منذ صغرهم بأن الاقتراب منها يعني التعرض لأشد أنواع العقوبات، ليس من الماما والبابا فقط بل أيضا من الشرطة التي لا ترحم حتى الصغار حين يتعلق الأمر بأمن الدولة.

لم يجرؤ على مشاركة أمه بكل هذه المخاوف والأفكار، فهي دائما تفهم أكثر منه ما هو الممنوع وما هو المسموح، لذا سيصمت ويرى ما تنوي عمله.

أومأت برأسها له مبتسمة كأنها تنتظر مباركته، بينما بادلها ابتسامة قلقة وهو يشير لها أن تصعد، ثم استجمعت كلّ قواها، إذ وضعت قدمها اليمنى على السلّمة الأولى، فأحدثت الحركة اهتزازا توقّف ما أن وضعت قدمها الأخرى التي أعادت التوازن إلى السلّم.

أمسك دعامتيّ السلّم بكل ما يمتلك من قوة حتى احتضنه فغاص رأسه في طيات لحم الفخذ الأيمن لأمه، التي ما أن توازنت رفعت قدمها اليمنى ثانية لتعتلي السلّمة الأخرى فاهتزّ السلّم وكزّ الولد على أسنانه وهو يحاول الحفاظ على توازنه وتوازن السلّم حتى شعر بأنه يلفظ أنفاسه الأخيره، فعالجت هي يمناها بيسراها لتخفّف الضغط عنه وتحفظ التوازن.

نظرت إلى أسفل وهي تشعر بأن المعدن تحت قدميها يكاد أن ينبعج، ففكّرت بأن عليها أن تستعجل المهمة قبل أن تنثني قوائم السلّم وتسقط أرضا، لذا وضعت المفتاح بسرعة في الثقب المخصص له وأدارته بلهفة، ثم مدّت يداً مرتبكة لفتح باب الصندوق، ففاجأها ما رأت.

لم تكن هناك خمسة مفاتيح كما توقّعت، بل أضعاف هذا العدد، الأمر الذي أثار حيرتها وهي تدرك تماما أن عدد أفراد أسرتها خمسة فقط، فلِمن تعود كلّ هذه المفاتيح؟!

استطاعت عدّها بسرعة فوجدتها تقارب خمسة وعشرين مفتاحا أبيض صغير الحجم، يتخلّلها سلك أسود، وليس هناك ما يشير إلى أصحاب هذه المفاتيح، لا اسما ولا رمزا، فكيف لها أن تعرف المفتاح الذي يخصّ رأس زوجها أو رأسها؟!

قطع تفكيرها صوت محرك طائرة حلّقت على ارتفاع منخفض فوق سطح الدار، فدبّ الرعب في بدنها وارتجفت.

تصاعد لهاث ابنها، الذي كاد أن يتهاوى تحت ضغط ثقلها، فأغلقت باب الصندوق بسرعة ولحقَته بالقفل والمفتاح ثم حرّكت قدمها ببطء لتهبط السلّمة الأولى ملقية بثقلها أرضا وهي تتابع بنظرها سحابة الدخان التي خلّفها محرك الطائرة.

- إنها تطير كل يوم في نفس التوقيت يا أمي.

ـ لم ألحظ ذلك من قبل!

حين نزلت إلى الدار مع ابنها، كان وجه زوجها هو أول ما وقعت عليه عيناها، فهو لم يكن نائما كعادته، بل كان خارجا من المطبخ يحمل طبق طعام. نظرت إلى الطبق في يده معاتبة، فقد تناول غداءه قبل قليل وعليه أن يصمد حتى العشاء قبل أن يفكر بتناول الطبق الذي اقتطعته من طعام الغداء لتوفرّه للعشاء. سيكون عليها الآن أن تفكر ببديل، حيث لا يوجد الكثير في الثلاجة.

قبل أن تبادره بالكلام، رمقها بنظرةٍ غريبة أربكتها حتى خشِيت أن يتساءل عن السلّم الذي ينوء ابنها بحمله وهو يتقدّمها ببطء:

- ما الذي كنتما تفعلانه على سطح الدار؟!

حاولت أن تجد عذرا أفضل من تبديل المصباح، لأنه قام بنفسه بتبديله قبل أيام معدودة ولن يقبل أن يفعل ذلك أحد غيره، وحين تعطّل الجواب على شفتيها، باغتها منفعلا كمن اكتشف أمرا جللا: ستفسدين هذا الولد بدلالك، تعلمين ألّا يجوز له أن يتسلّق سياج سطح الدار.

ثم التفت ناحية ابنه مؤنّبا: ألمْ أحذّرك من مطاردة الطائرات الورقية؟ كم مرة مزّقتُ طائرتك؟ و

طلبتُ منك أن تكفّ عن ممارسة هذه اللعبة؟

التفت الولد ناحية أمه حائرا كمن يطلب النجدة، فقد أجهده حمل السلّم ولن تسعفه قدماه على الهرب تجنّباً لركلة محتملة من أبيه. لكن الأب لم يتحرّك من مكانه، بل جحظت عيناه وصار يخور كعجل ذبيح، يقدّم قدماً ويؤخّر أخرى، بينما يتراقص طبق الطعام بين يديه وهو يبذل جهداً لمنعه من السقوط.

ارتعب الولد وتشتّتت نظراته بين أبيه الذي يكاد يفقد توازنه ويسقط وبين أمه التي كانت تراقب الأب ببرود غريب.

أشارت إلى ابنها أن يسرع في طريقه لإعادة السلّم إلى مكانه في الممر الخلفي، فأطاعها دون أن يلفظ حيرته وجرجر قدميه مبتعدا قدر الإمكان عن البقعة التي يقف فيها أبوه خشية أن يرتطم السلّم بأي جزء من ذلك الجسد المترنح.

أما هي فهبطت السلّم بهدوئها المعتاد واقتربت من زوجها. مدّت يدها في محاولة لأخذ طبق الطعام من يده، فسلّمه بيد مرتعشة بينما قبض باليد الأخرى على كتفها ليمنع نفسه من السقوط، فأجفلتها حركته وأثارت الرعب فيها نظرة قاسية سدّدها إليها كأنما ليقول بأنه يعلم ما يدور في رأسها. تمالكت نفسها ودفعت بيدها اليسرى يده التي تسمّرت على كتفها.

بهدوء سحبتْه نحو الكنبة القريبة، وضعت الطبق على المنضدة وأجلسته بكلتا يديها: حاولْ أن ترتاح قليلا، ربما هو السكّر؟

عدّلت الوسادة، وضعت أخرى فوقها، لكنّه ظلّ جالسا رغم محاولاتها لمساعدته على الاستلقاء: تمدّدْ قليلا.

لم يُجب، بل خفض عينيه وانكمش على نفسه وهو يمدّ جذعه ليستند إلى الوسادة، حرص على أن يبقى جالسا تقريبا وسمح لساقيه أن تمتدّا أمامه وتسند إحداهما الأخرى. هذه ليست المرة الأولى التي ترى فيها نوبة من نوبات مرض السكّر الذي أصابه قبل سنتين تقريبا، لكنها المرة الأولى التي شعرت بانكساره وخوفه. كان ينظر إلى أمام في الفراغ كأنه فقد شعوره بوجودها بينما خفتَ صوت لهاثه واستكان. سحبت يدها بهدوء من على كتفه بعد أن اطمأنّت إلى وضع استلقائه، وبشكل مباغت قبضَ على كفّها، كمن يمسك مجرما متلبّسا. جفلت، نظرت إليه مستفهمة وهي تقبض على هدوئها خشية أن يباغتها بشكوكه، لكنّه لم يقل شيئا، فقط نظر إليها بعينين لم تعرفهما من قبل، ثمّة كرتان زجاجيتان تجمّع حولهما سائل لن يلبث أن يجري بمجرد إطباقة جفن...

كاد قلبها أن يختنق كمن يجاهد ليرتفع فوق سطح الماء: لست بخير! تحتاج إلى طبيب؟

أطرق وهو يُفلت يدها، وأشاح بوجهه ناحية الجدار ليمنح خلوة لدمعة راودته عن نفسه، ثم بذل جهدا ليرتّب الكلمات الخائرة: لست بخير يا... يا... يا "آمنة"... لم أكن يوما بـ... بخير.

كم هي عدد المرات التي تمنّت فيها ألّا يكون بخير، أن ينام فلا يصحو، أن يخرج فلا يعود، أن يمرض فلا يُشفى، أن يضحك فيختنق بلسانه، أن يسافر ويغيب، أن يختفي، يختفي إلى الأبد، لكن هذه المرة، حين أوشك الأمر أن

يصبح حقيقة، شعرت كطفلة تركها أهلها في حديقة عامة وابتعدوا، وحيدة وغريبة، كأنّ جزءا منها يعاني معه، يتألم لألمه.

هل تحبّه حقّا؟ لا... هو ليس حبّا، بل الأثر الذي سيخلّفه موضع القيد لو أُطلِقتْ! فأنْ تتعايش مع السجّان لهو أرحم من أن تُلقى وحيدا في حفرة.

20

لم يكد يجلس إلى مكتبه حتى دخل المُخبر الخاكي، وعوضاً عن أن يضع أمامه قدح الشاي كالمعتاد، ألصق بطاقة حمراء على صندوق الملاحظات الخشبي، مما يعني أن العميل (س) مطلوب في الإدارة. ارتجفت يده وهي تقبض على الملاحظة وشعر بأن ضغط دمه سيخنق قلبه وأنه عاجز عن التنفس. سحب نفَسا عميقا وهمّ بالنهوض للتوجّه إلى مكتب رئيسه، لكنّ السطر الأخير من الملاحظة كان يشير إلى أن الموعد سيكون عند تمام الحادية عشرة، أي بعد ساعتين من الآن، ...

فكيف سيحتمل قلق الانتظار؟

تذكّر مقولة وزير دعاية "هتلر"...

"غوبلز" الذي قال: لا أخشى أحدا أكثر من عدو يفكّر.

ها هو يقع ضحية ما تخشاه السلطة.

ثمّة تَستُّره على "آمنة" التي تفكّر بطريقة لا بدّ من أنها أزعجت السلطة.

فطيلة السنوات الماضية، بذل كلّ جهده ليخفي المعلومات الخاصة بذاكرتها حين تلاعب بخط المراقبة الخاص بالمواطنة (247)، وجمدّ كل التحديثات التي ترافق تدفّق الذاكرة يوميّا ليعمّ السكون خط مراقبتها، وبما أنها امرأة، لم يُثِر ذلك الانتباه، فتركيزهم عادةً ما ينصبّ على ذاكرة الرجال والشباب وبعض النساء ممّن وُصمن بسجلّ ذاكرة حاقد على السلطة والوطن.

ـ يجب أن أحذّرها، يجب أن أحذّرها...

تكرّر الصوت في رأسه عدّة مرات...

كيف يمكنه ذلك وهي لا تعرف من هو؟! هل يتّصل بها هاتفيّا؟! هكذا بكل بساطة يخبرها بما سيحصل لها ولعائلتها إن ثبت أن ذاكرتها خائنة؟!

ذلك لأنها لم تستثمرها في عملها وفي رعاية عائلتها فقط، بل في ذمّ السلطة حين تستذكر الماضي الذي من المفترض أن يكون قد مُحي تماما بعد تطبيق نظام البرمجة، إلاّ في حالة مقاومة الفرد لمحو الذاكرة من خلال شحنها باستمرار، ليل نهار، وهذا ما كانت تفعله "آمنة".

لماذا لم يحذّرها منذ البداية؟

لماذا تورّط معها في أمر سيقضي عليه وعلى عائلته وعائلتها بالكامل؟

رنّت الكلمات في رأسه ثانية وثالثة: يجب أن أحذّرها. لكن كيف؟ هل...؟

هل ستصدّقه؟!

بل هل ستصغي له إن حاول أن يكلّمها على الهاتف؟

إنها حتى لا تعرف إن كان حيّا أو ميّتا، ربما ستظنّ أن هناك من ينتحل شخصيته ليحصل على معلومات، فبعد أن أصبحت الذاكرة مُلكا للدولة، صار من الطبيعي أن يعرف الكثير من العاملين على هذا المشروع بقصتها معه، أو هكذا ستفكر... ربما.

وحتى إن عرفته وأصغت إليه، هل ستثق به بعدما فعله بها، خصوصا إذا علمت بأنه يعمل في أمن الدولة، وعلى مشروع البرمجة بالذات؟

يعرفها تماما، يعرف أنها ستكرهه أكثر، وستظنّ أنه يستغل عمله للإيقاع بها أو ليبتزّها للحصول على معلومات عن أخيها المهاجر مثلا أو ربما لديهم شكوك حول أحد تعرفه هي.

كيف سيقنع هذه المرأة التي تكره كل ما له علاقة باللون الخاكي والحياة العسكرية والوظائف المتعلقة بالأمن والمخابرات؟

يتذكّر كيف كانت تصف من يعمل في هذه الوظائف بالسماسرة، فرجل الأمن لم يعد مسؤولا عن أمن المواطن والبلد، بل صار ضالعا في المتاجرة بأجساد الناس وحيواتهم شأنه شأن سماسرة البغاء!

قصفت دقّات الساعة مواقع التفكير في عقله، فارتجف متطلّعا إليها خشية أن يكون قد فوّت موعده مع مديره، لكن عقاربها ما زالت تحوم حول العاشرة. مضت ساعة كاملة أَعملَ خلالها تفكيره ليجد منفذا يصل من خلاله إلى "آمنة" وهو بعد لا يعلم ما الذي يحمله له هذا اللقاء المباغت مع المدير! فإن حدث ما يخشاه، وكان مديره على علم بتلاعبه في نظام البرمجه من أجل حمايتها وعائلتها، فإنه لن يرى ضوء النهار ثانية ولن يجد أبدا فرصة لتحذيرها!

21

(أنت وعائلتكِ في خطر، احضَري مساء اليوم الساعة 5 على هذا العنوان...)

بضع كلمات في قصاصة كانت كافية لإشعال حرائق الخوف.

هل هي لعبةٌ أم حقيقةٌ ما تضمّنتْه هذه الكلمات؟

مَنِ السيدة التي زارتها اليوم في عملها مدّعية أنها خالتها لتسلّمها هذه القصاصة القاتلة؟

لم يسبق لها أن رأت هذه المرأة، لكن وقارها والابتسامة التي تنير ملامح وجهها السمحاء لا يشيان بغدر أو خيانة.

شعرت بيده الصغيره تقبض على زندها، تهزّها كأنّما لتوقظها من سبات، فأحكمت قبضتها على القصاصة خشية أن تتسرّب منها كلمة ما.

التفتت لترى ابنها يقف على طرف السرير، يحاول أن يستجمع كلماته: أختي... كا... كانت على... سـ... سطح الدار، سرقتْ... الـ... المفتاح...

نظرت إلى وجهه الصغير الخالي من الملامح، تلمّست موضع رأسها، ما زالت تحتفظ به في مكانه، رغم أن البرمجة بدأت منذ نصف ساعة كما يبدو.

لم تُجب، بل ظلّت تنظر إليه تتأمّل رأسه وموضع الكلمات التي تخرج من بين شفتيه متقطّعة.

مدّت يدها لتلمّس خدّه، فجفل الولد وتراجع خطوة: لا... لا يجوز... أن... أن تلـ... تلـ... تلمسي وجهي.

طمأنتْه: لا تَخفْ يا حبيبي... أريد التأكد من أمر ما فقط.

اقترب منها متردّدا، مرّرت أطراف أصابعها على وجهه، لم يكن ملمس البشرة آدميّا، كان أقرب إلى ملمس دمية.

فزّت كمَنْ مسّها تيّار كهربائي!

بعضُ اليقين لا ندركه إلّا مرة واحدة في حياتنا...

ـ خُدِعْنا.

- ماذا... ماذا تقصدين... أم... أمّي؟

ـ لا شيء يا ولدي. سأتحدّث إلى أختك بالأمر. لا تخبرها بأنك أعلمتني.

- لم تتناولي... غدا... غداءك... أختي... احتفظت بحصّتك في... الثلاجة.

قبضت على قصاصة الورق في يدها، كأنها تقول إنها نسيت كل شيء عداها اليوم وأومأت له بالذهاب.

رغم أنها لم تجد رغبة لإجراء حوار مع ابنتها الكبرى، قرّرت التحدّث إليها بعد انتهاء فترة القطع المبرمج لتتأكّد مما ذكره ابنها، فأنْ تسرق المفتاح وتصعد ثانية إلى السطح، لهو أمر جللٌ قد يفضح ما خططّت له ويُفسد ما عملت عليه.

- ليست علاقة عابرة يا أمي، سنتزوج.

ـ هل جُننت؟ ما زال طالبا في الجامعة. وكلاكما صغير في السن. هل توافقين على أن تتزوّجي ولدا لا يملك عملا أو دخلا ثابتا لتظلي تحت رحمة أبويه وما يتصدقّان به عليكما؟

- إنه في الثانية والعشرين يا أمي، سيتخرّج هذه السنة، أُفضّل الزواج برجل يكبرني بسنوات، ثم إنهم يملكون الكثير من المال، وهذا ما أريده، تعبتُ من الفقر، المهم هو يُحبّني.

ـ أنت تقتلينني بهذا! حين سرقتِ رأسي... ألمْ تفهمي؟ ألمْ تعثري على ما حلمتُ به لكم؟!

- عثرتُ على حلم بقبلة لم تكتمل... لا أريد حُلما ناقصا يا أمي!

ـ هل تظنّين أن زواجك المبكر سيحقق أحلامك؟

- لا أعلم، فقط لا أريد أن يبقى حلمي أسير قبلة!

ـ وهل لديك أحلام أخرى في رأسك الفارغ هذا؟ منذ متى كانت القبلة حلما؟!

- ألمْ تكن كذلك لديك؟

ـ كنتُ صغيرة. لم أكن أفهم أنّ هناك عالما من الأحلام يستحقّ أن أعيره انتباهي! بعض الأحلام تتحوّل إلى قيود تأسرنا يا ابنتي.

- نعم، كزواجك من أبي!

ـ كفى. يبدو أنك عبثت في زاوية فقط من رأسي، فلم تشاهدي الكثير. الأحلام كالناس، تُولد أطفالا، بعضها يموت قبل أن يحبو وبعضها يكبر. نحن من يحمل بها ويلدُها، لذا هي تشكّل عائلة. هنالك ترابط، أتفهمين؟ لكوْني أضعت حلما وأنا في السادسة عشرة لا يعني أن حياتي كلها خطأ. في ذلك الحين، كان الحب حلمي الوحيد، كأيّة مراهقة. حين تدور الأحلام حول فلك واحد فهذا يعني أننا نقيّد أنفسنا، يعني أننا فشلنا في إيجاد هدف للحياة، وللحياة أوجه كثيرة، كل منها يستحق أن نرصد له حلما.

- أنا في الخامسة عشرة، في سنّك تقريبا، حين كان لك حلم واحد، فلمَ تطلبين مني ما لا أفهمه ولا أطيق حمْله؟

ـ لأنك ستكبرين، العمر كله بانتظارك يا ابنتي، ستنضج أحلامك الأخرى وستندمين...

- حقّا؟ أيّ عمر يا أمي، مُذ أدركت، لنقل منذ الخامسة أو السادسة من عمري، وأنا... أقصد... كبرت دون طفولة. قبل أيام شاهدت فتاة في سنّي تسافر على ظهر مركب، لم أرَ مركبا في حياتي، ولا بحرا...

ـ أين شاهدت ذلك؟

- في فيلم أجنبي على شاشة التلفاز.

ـ ألم أحذّرك من ذلك؟ كيف ولِمَ فعلتِ؟ تعلمين أن مشاهدة الأفلام الأجنبية ممنوع!

- بربّك يا أمي، ألمْ تفهمي بعد؟ نظام البرمجة هذا ليس ملائكة تقف على أكتافنا! إنهم لا يستطيعون متابعة كل شيء.

ـ ستتسبّبين بمقتلنا جميعا أيّتها الرعناء.

- لا فرق يا أمي، سنُقتل في جميع الأحوال، فدعيني أستمتع بما يتيّسر لي.

ـ ما الذي تقصدينه بأننا سنُقتل؟ هيّا تكلّمي.

لم تنتبه "آمنة" إلى أنها كانت تهزّ ابنتها بعنف ممسكة بكلتا كتفيها حتى انتفضت الفتاة لتدفعها بعيدا وتنسحب نحو الباب، ثم وضعت قبضتها عليه كأنّما تهدّد بأن تفتحه وتُسمع الجميع آخر جملة كانت كافية لتزلزل أركان الأم: أنت من سيقتلنا جميعا بما تخطّطين له، نعم، شاهدك جارنا الذي كان يراقبك من بين شقوق جدار السطح وأخبرني، لذا عليك أن تزوّجيني إيّاه لتضمني سكوته.

22

بعضُ الجرأة جنون.

أيّة جرأة هذه التي تدفعها للذهاب إلى مكان مجهول استجابة لموعد ضربه لها أحدهم في عنوان لم تسمع به من قبل!

شدّت أطراف شالها حول صدرها لتتفادى نسمات باردة تسلّلت إليها من نافذة سيارة النقل العام التي تقلّها إلى ذلك العنوان، وقد نظرت عبر زجاج النافذة إلى السماء الملبّدة بالغيوم التي توزّعت لتُغطّي بقايا مساحات برتقالية وبنفسجية تتضاءل تدريجيّا أمام بساط الليل الذي سيحلّ قريبا.

وبما أنها لم تعتدِ الخروج ليلا، كان عليها أن تجد عذرا مناسبا لتبرير غيابها، ولم يكن هنالك عذر أفضل من موعد مع الطبيبة النسائية. لو كانت تعرف بمن ستلتقي، لهيّأت الكلمات المناسبة كما يفعل أيّ شخص يذهب لمقابلة ما، لكنّها تجهل تماما إذا كان من ينتظرها صديقا أم عدوّا!

هل هي المرأة التي حملت الرسالة؟ أم ثمّة رجل استخدمها ليخفي هويته؟ عصابة خطف أم رجال الأمن!

استبعدت الخاطرين الأخيرين...

فأية عصابة هذه التي تخطفها وهي لا تملك ثمن سيارة أجرة؟!

أما رجال الأمن، فلا يحتاجون إلى امرأة لتوصل رسالتهم ولا إلى موعد في مكان بعيد عن بيتها، فلو كانوا علموا حقّا بما تخطّط له، لداهموا بيتها واعتقلوها مع عائلتها دون إذن.

ـ.. ربما ما كان عليّ المجيء، فأنا أم لثلاثة أولاد، إنْ أصابني مكروه سيتحطّمون.

قبل أن تستسلم لهذه المخاوف، تذكّرت الملاحظة التي تقول إنها وعائلتها في خطر، مما يعني أن عليها المجازفة، فلربما كان الشخص مُحسنا يضمر لها الخير، أو سيساعدها على الهروب من هذا الجحيم!

هل يُعقل أن يكون هذا الشخص قد فكّر بما تفكّر هي به؟ أن يكون قد تواصل معها من خلال خطوط البرمجة وكشف خططها؟! هل هو ابتزاز؟ لأجل ماذا؟

كادت أن تنطق الجملة الأخيرة بصوت عال، لولا يد المرأة التي ربّتت على كتفها كي تطلب منها النهوض لتفسح لها مجالا للنزول مع طفلتها، ففزّت كمن يستفيق من غيبوبة، ثم نهضت معتذرة.

أثناء ذلك، لاحظت أن السيارة التي تقلّها شبه فارغة، فقد غادرها معظم الركّاب، حينئذ تلفّتت حولها، ونظرت إلى الشارع القريب، فأدركت بأنها اجتازت المحطة المطلوبة، لذا سألت السائق لتتأكّد، فأخبرها بأن عليها أن تنزل وتعود أدراجها مسافة 500 متر تقريبا، فشكرته وغادرت سيارته.

أخذ ظلام الليل ينتشر تدريجيّا واشتدّت برودة الهواء، فخفّت الخطى لتتمكّن من الاستدلال على العنوان قبل أن يحلّ الظلام تماما، لذا تصاعد لهاثها وشعرت بثقل خطواتها يرنّ في رأسها كصوت مطرقة حتى فقدت قدرتها على تجميع أفكارها، فكل ما كان يشغلها هو أن تجد العنوان المطلوب.

توقّفت أمام باب مطليّ باللون الأبيض يتوسّط سياجا عريضا مطليّا بلون أصفر، تتدلّى من وسطه أغصان شجرة نارنج ونتكاثف على جانبيه أغصان لبلاب وياسمين تنشر عبقها حول الباب. نظرت إلى قصاصة الورقة ثانية لتتأكّد من رقم الدار فوجدته مطابقا لما هو أمامها. تردّدت قبل أن تقرع الجرس، وقفت على أطراف أصابعها تحاول أن تستكشف شيئا ما، لا تعرف ما هو، فقط أيّة إشارة قد تفسّر علاقتها بساكني هذه الدار.

ـ يبدو أنها دار سكنية، ليس من أيّ داعٍ للخوف، توكّلي على الله.

أغمضت عينيها كمن يقدم على الانتحار، ضغطت جرس الباب بيد مرتجفة، سحبت يدها بسرعة كأنها أدّت الواجب وتمنّت لو أن من في الدار لم يسمع صوت الجرس كي تفرّ هاربة، لكن توقعاتها خابت حين فتحت الباب الخارجي مرحّبة امرأة عجوز، عرفتْها فورا، فشعرت بنوع من الأمان اكتسح كل أطراف جسدها واقتلع كل نظريات المؤامرة من رأسها. تبعت المرأة العجوز عبر ممر طويل يفضي إلى الباب الداخلي، مارّة بسيارة تويوتا بيضاء، تبدو حديثة الطراز، الأمر الذي أشعل قلقها مرة أخرى، ففي زمن الحصار، ثمة السياسيون ورجال العصابات فقط هم من يمتلكون سيارات كهذه!

كرّرت المرأة العجوز عبارات الترحيب، كأنها تعرفها مُسبقا، ودعتها إلى الجلوس، فاختارت المقعد القريب من المدفأة، فقد أدركت أنها ترتجف بردا وقلقا، بحاجة إلى تجميع حواسها بالحصول على قليل من الدفء.

- سأحضر لك الشاي، تحتاجين إلى دفء.

ـ شكراً يا حاجّة، لكن أخبريني فقط...

ربّتت على كتفها بحنان: لا تخافي، أنت بأمان.

ثم غادرت الغرفة مخلّفة وراءها "آمنة" وحيدة تُجيل نظراتها في المكان، صالة أنيقة بأثاث بسيط، توحي باكتفاء مادّي، تفحّصت الجدران المحيطة، طالعتْها صورة لرجل يقطع أحد زوايا إطارها شريط أسود، يبدو أنه زوج المرأة العجوز الراحل، وعلى الجانب الآخر لمحت لوحة أنيقة خُطّت عليها عبارة عرفتها جيّدا: "سلّح عقلك بالعلم خير من أن تزيّن جسدك بالجواهر"...

إنها مقولة (كونفوشيوس) التي أثارت اضطرابها، فقد كان سلام يردّدها كثيرا.

لم يترك لها مجالا للاستنتاج، بل ظهر أمامها منتصبا كالقدر.

نهضت عاجزة عن التفكير أو الكلام، تلمّست موضع الرأس: من المؤكد أن مقولة (كونفوشيوس) استحثّت الذاكرة!

هذه المرة خرجت كلماتها بصوت مسموع، فأجابها: رأسك في مكانه "آمنة"، هذا المكان غير مشمول بالبرمجة، لستُ محْض ذاكرة، أنت تقفين في بيتي أنا... أنا "سلام".

23

في العادة لا يُحْدثون جلبة حين يحضرون لاعتقال شخص ما، أمّا هذه المرة فأغلقت سياراتهم الزقاق الذي تقع فيه دار "آمنة".

كانت أربع سيارات ذات دفع رباعي، جلس في كل منها اثنان، أحدهما بزيّ مدني والآخر بزي عسكري، إضافة إلى السائق.

هرع الجميع إلى دورهم، تراكض الصغار مخلّفين وراءهم ألعابهم التي كانت تجمعهم في الزقاق، بعد أن تعالت صيحات أهاليهم بدعوتهم للعودة إلى الدور، التي أُغلقت أبوابها، وخلف كل منها كانت هناك عائلة تدعو الله بألّا يُطرق بابها!

أغلق الفتى الباب خلفه وأسند ظهره كأنما ليحول بين الحرس وبيته، تصاعد لهاثه، حاول أن يستجمع أفكاره ليُبعد رجال الأمن عن داره، اندفع باتجاه السلّم، فاعترض الأب طريقه محذّرا: ابتعدْ عن السطح الآن، سينتشرون هناك في غضون دقائق.

- ألمْ تعد أمي بعد؟

ـ لا، ليتها تتأخر حتى ينتهي هذا العرض.

انزوى الولد تحت السلّم يقضم أظافره، فما هي إلّا دقائق ويطرقون بابهم، سيعتقلون أباه، وربما سينتظرون أمه ليعتقلوها هي أيضا، فهي العقل المدبّر، هي من خطّطت للتلاعب بمفاتيح البرمجة، سيقول لهم إنها كانت تحاول تنظيف الصندوق مما علِق به من خيوط العنكبوت، ربما ضغطتْ زرّا ما دون أن

تقصد، سيصدقونه، فهي، في نهاية الأمر، امرأة تهوى التنظيف ولا تعير اهتماما للبرمجة.

هل يتعيّن عليه أن يخبر أباه عن الأمر ليكون مستعدّا؟!

... أظنّ ذلك أفضل.

قفز من مكانه متوجّها ناحية الأب الذي كان يجلس على الأريكة وقد ارتدى ملابس مهندمة مستعدّا لأي طارئ، حيث شغّل التلفاز وثبّته على القناة التي تبث أخبار القائد.

جلس الصبي قرب أبيه الذي كان منشغلا تماما في التفكير بسبب زيارة رجال الأمن للمنطقة...

من هي العائلة التي تخضع للمساءلة الآن وما هو الجرم الذي ارتكبته؟!

فأن يخرق القانون أحد أفرادها، يعني أن بقيّتها ستنال نفس المصير!

- بابا... بابا...

_ ألا يمكنك أن تظلّ صامتا؟! على الأقل اليوم. في هذا الوقت.

- لكن... أظنّ أنّ عليّ أنْ أخبرك بأمر هام... أنا... أقصد أمي...

فقد الأب صبره، قبض على ذراع الصبي ودفعه بعيدا، صاح غاضبا: ستعود أمك إن عاجلا أم آجلا، فلمَ لا تمنّ عليّ بصمتك؟!

ارتطم الصبي بمنضدة قريبة، تعثّر حتى كاد يسقط، فأمسك بطرف الكرسي القريب، شعر بألم في كوعه، استعاد توازنه، وجلس على الكرسي وجلاً، فقد مضى زمن طويل منذ أن شاهد أباه على مثل هذه الحالة. كان يغضب باستمرار، يضربه، ويضرب أمه أحيانا، لكنه تغيّر في السنوات الأخيرة، لم يعد يغضب،

بل صار ينام كثيرا، ينام فقط. ربما يعلم أبوه بكل شيء، أخبرته أمه، يقولون إن الزوجات لا يخفين أمرا عن أزواجهن، لذا لا يريد له أن يتكلم...

لكنّه سيتكلم، سيقول أي شيء، لن يصمت بعد أن تلقّى مثل هذا التعنيف...

- ما أردت قوله... إن توقيت البرمجة مرّ منذ ساعة ولم تتم مصادرة الرؤوس...

ـ من الطبيعي أيها الغبي، لأن لديهم مهمّة في هذا الزقاق، يجب أن يحصلوا على إجابات لأسئلتهم، لذا يعطّلون نظام البرمجة في حالات الطوارئ.

- ثلاث ساعات متواصلة كانت كافية لاستعادة قدرتك على الغضب.

24

- تلعبين بالنار يا "آمنة"، لا تدركين ما أنت مُقدمة عليه!

ـ سأصنع ذاكرة تكفيني لأهرب مع أولادي، أصل إلى أخي عن طريق الشمال، كل ما أعرفه أنني أريد أن أهرب بعيدا مع الأولاد، سأستخدم ذاكرتي فقط لأبقى حية... هل تفهم؟ إنْ كنت قادرا على مساعدتي كفّ عن إسداء النصائح وافعلْ ما تستطيعه...

- لا أستطيع الكثير يا "آمنة"، الأمر أكبر منّي، لن تتمكني من الهرب بهذه السهولة.

ـ لو أردتَ لفعلتَ!

- أرجوك كفّي عن أوهامك وافهمي أن الأمر ليس لعبة، يجب أن يتم فصلك عن الشبكة على الأقل ليومين كي تستطيعي مغادرة العاصمة، سيثير ذلك انتباه زميلي المناوب، ففي العادة أنّ كلّا منّا يعمل لليلة واحدة فقط... ثم هل فكّرت كيف ستغادرين العاصمة؟ كيف ستعبرين الحدود المدجّجة بالحرس ونقاط التفتيش أنت وثلاثة أولاد؟ حتى لو وجدتِ من يساعدك بشكل غير مشروع، ستحتاجين إلى المال، وأنا أعلم تماما بأنك لا تملكين الكثير منه...

ـ هذا ليس من شأنك.

- بل من شأني يا "آمنة"، لن أقف مكتوف اليدين وأنا أشهد انتحارك مع أولادك!

ـ قُلْ إنك تخشى أن تخسر منصبك وامتيازاتك التي نلتها على حساب آلام الملايين ممن حوّلتهم إلى أرقام، سلبْتهم إنسانيتهم وقدرتهم على الحياة، لا تستطيع

الاستغناء عن هذا البيت الأنيق والسيارة، لم تُعانِ ما عانيناه، لم تتسوّل زوجتك بضعة كيلوّات من الخُضر لتطعم أولادها، أظنّ أن أولادك يدرسون في مدارس خاصة، أليس كذلك؟

- لم أتزوج يا "آمنة"!

لوهلة التقت عيناهما معا، لم تتغيّر عيناه كثيرا، نفس البريق، صغُرَ حجمها قليلا بفعل ضغط الخطوط الصغيرة التي أحاطت بها، أطرقت لتُوقف بعض تعاطف، فبادرها وهو يقترب منها برقة: لم أزل أرى فيك "آمنة"، سمرائي بشعرها الغجري، لم أكن أحبه مسترسلا، كنتُ أفضّله عبثيّا، من المؤسف أنك تضعين الحجاب فلا أستطيع رؤية شعرك.

نهضت مبتعدة، تلعثمت بادئ الأمر، لكنها تمالكت نفسها ثانية لتغيّر مجرى الحديث...

ـ تخلّيتَ عني سابقا وستفعل.

- لم يكن بيدي يا "آمنة"، دفعتُ ثمنا كبيرا...

ـ أيُّ ثمن كبير يوازي ما دفعتُه أنا، فرق بين أن تكون ضحية أو أن تكون جلّادا!

- من الأفضل أن يعاني الإنسان الظلم على أن يمارسه.

ـ هه... أنت كلاهما!

- لن تفهمي يا "آمنة" مهما شرحت لك، لكن أرجوك، افهمي فقط بأنهم سيعتقلونك، ستتعرّضين لكل أنواع التعذيب، لن تحتملي، سيغتصبون ابنتيك...

ـ سأنشب أظافري في أعناقهم...

- هذا إنْ ظلّت أظافرك في مكانها، سيقتلعونها وهذا أبسط ما يفعلون!

ـ أنت جبان، قاتل، القاتل من يحرّض على القتل وليس من أغمد السيف.

- لو لم أكن قاتلا لكنت مقتولا، في هذا البلد، نُولد على حافّة القبر يا "آمنة"، نبدأُ الاحتضار منذ اللحظات الأولى، لا نملك الخيار، لو لم أكن معهم لما استطعت تحذيرك الآن.

لم تُجب، تظاهرت بأنها لا تعرف شيئا، فكونه "سلام" لا يعني أنه موضع ثقة، فهو منهم، كلب السلطة الذي يسيل لعابه لعظمة، لهذا استدرجها إلى هذا المكان، ليتأكد مما تضمره، ليكتب تقريره فيحصل على مزيد من العظام.

ـ لا يوجد ما تحذّرني منه، لست مجبرة على الاستماع إليك، يجب أن أذهب، تأخرت.

نهضت، فاعترض طريقها، تسلّل عطره إلى حواسها، نفس العطر القديم الذي كان غيمة لقبلة لم تكتمل...

داخت قليلا وأشاحت بوجهها كي لا يرى اضطرابه...

- اسمعيني جيّدا يا "آمنة"، زميلي المناوب لاحظ خللا في استجابة زوجك لنظام البرمجة فكتب تقريره، لذا استدعاني المدير بالأمس للتحقيق في الأمر، من حسن الحظ أنني أعلى مرتبة من هذا الزميل، يمكنني تأجيل كشف الأمر لفترة تستطيعين خلالها استدعاء الخبراء في لجنة المراقبة لتثبيت شكوى حول خلل تقنيّ لتتجنّبي المساءلة، لكن إذا لم تبلّغي عن الأمر، سيكتشفون تلاعبا في النهاية، وستكون العواقب وخيمة، أنا أُعرّض حياتي للخطر من أجلك، هل تفهمين؟

ارتبكت، ها هو يضع الطعم لها وهي على وشك أن تعترف وتسقط ضحية ألاعيبه، أجابت بلهجة واثقة: لم يتم التلاعب بأي شيء، زوجي يعاني منذ فترة من عدم انتظام في تزويده بخط الطاقة، حيث يفقد تواصله مع رأسه حين تُعاد إلينا رؤوسنا، كنت أنوي سؤال الجيران عن الأمر، أقصد فيما إذا كان أحدهم يواجه أمرا مشابها...

قاطعها: لا تُقحمي الجيران في الأمر، لا تثقي بأحد أرجوك، لا أحد يستطيع مساعدتك، أنا من أنشأ البرمجة وأنا أعرف الآن بأنك تكذبين لتداري محاولاتك بتوفير طاقة أكبر، أنا من كان يحميك، ربما أخطأتُ حين سمحت لك بالتمادي، كان يجب أن أوقفك قبل أن يفتضح الأمر، صدّقيني "آمنة"، أنا هنا لمساعدتك، إلّا إذا كنت تتعمّدين الصمت لتتخلّصي منه!

أرعبتها الفكرة...

كيف يجرؤ على اتّهامها بمحاولة التخلّص من زوجها؟

من أعطاه الحق ليأتي بعد عشرين سنة ويُملي عليها ما تُفكّر به؟

ـ هل جُننتَ؟ أبُ أولادي! رجلٌ طيّب.

- لم يكن طيّبا دائما معك يا "آمنة"، أعرف كل شيء، هل تُحبّينه؟

ـ لا أكرهه، أدخلَ الظلام إلى قلبي، لكنه جزء مني، فكيف أكره نفسي!

- إنْ كان بقاؤك معه هو ما يعذبّك، فاتركيه يا "آمنة"...

ـ ما الذي تخطّط له؟! هل تفكّر بما تقول؟ سأتركه في حالة واحدة. إن ساعدتني على الهرب مع أولادي لأني أعلم تماما أنه سيرفض مرافقتي!

- لن أساعدك على الهرب، إنها مخاطرة، لستِ أهلاً لها مع ثلاثة أولاد صغار...

ـ سأتدبّر أمري، فقط احجب المراقبة عن رؤوسنا ليومين، يومين فقط أستطيع فيهما الوصول إلى الشمال، سأجد من يقلّني خارج الحدود، أخي هناك ينتظرني في هولندا...

- الأحمق من يشعل نارا يعجز عن إطفائها، لست بأحمق، ستحترقين وأحترق بنار جنونك، ثم إن الأمور لن تستمر بهذا الشكل، البلد على أبواب حرب، جيوش العالم تجتمع لدخوله بعد شهرين من الآن، لا نعلم إنْ كنا سنستطيع مواجهتها، انتظري لنرى ما الذي سيحصل.

25

لم تكن "آمنة" تعلم، وهي في طريق العودة، بأن رجال الأمن قد اقتحموا دارها فعلاً...

رفضت عرض "سلام" بتوصيلها إلى الدار، ورغم أن الساعة تجاوزت السابعة شعرت بحاجتها لأن تكون وحيدة، فليس ظلام الليل هو ما يخيفها بل العتمة التي زحفت إلى عقلها وروحها فحجبت عنها رؤية أي منفذ للأمل، كأنّ لقاءها به قد وضع إشارة حمراء في طريقها الذي رسمته على شفا حلم بالنجاة، ومع كل محاولاته لإبداء حسن النيّة ظل يساورها شكٌ من لقائها معه...

هل حقّا كان ينوي تحذيرها أم ليُمعن أكثر في إذلالها حين يوحي إليها بأنّ حياتها وحياة عائلتها رهن إشارة منه؟

كان الشارع شبه فارغ، ففي هذا الوقت من الليل الشتائي يقل عدد السيارات والمارّة، وهذا ما أضفى على روحها شيئا من السكينة، فهي تحتاج إلى ترتيب أفكارها لوضع خطة محكمة بعد أن وعدها "سلام" بأنه سيساعدها في تنفيذ خطّتها بالهروب خارج العاصمة.

لم يتبقّ لها إلّا تدبير مبلغ من المال، وهو أمر ليس باليسير، ستقدّم طلبا للتقاعد وتحصل على مكافأة نهاية الخدمة، وهذا أيضا ليس متيسّرا، فلا يُسمح للموظف بالتقاعد إلّا بعد أن يبلغ الثالثة والستين ولا يُستثنى من هذا القرار إلّا المرضى، وبالطبع يجب عليها إثبات مرضها بتقرير طبّي موقّع من اللجنة الطبية في وزارة الصحة، وهذا أيضا مستحيل، فهي لا تشكو من شيء عدا آلام في الرحم لم تعرف سببها حتى الآن.

عليها إذاً أن تزور الطبيبة ثانية لتقف على علّتها، فلربما احتاجت إلى عملية!

وماذا بعد؟!

فالعملية ليست سببا كافيا للتقاعد، سُتمنح إجازة لفترة من الزمن تستطيع خلالها أن تنفذ فكرة هروبها.

... والمال؟ كيف أستطيع تدبير المال اللازم؟

لم تدرك أنها كانت تتحدّث بصوت مسموع إلّا حين أجابها سائق سيارة الأجرة: ليس عليك ذلك سيدتي، لقد دفع الأستاذ الأجرة كاملة.

ليست المرة الأولى التي تتحدّث فيها بصوت مسموع مع نفسها، مؤشر خطير على أنها قد تفقد عقلها يوما ما.

جيّد أن "سلام" أصرّ على دفع أجرة السيارة حين رفضت عرضه بإيصالها، فبعد أحداث الساعتين الماضيتين لن تستطع احتمال انتظار سيارة النقل العام أو أن تحشر جسدها الضخم بين الركاب الذين لا يتوقفون عن القرقرة والحديث بأصوات تصدّع رأسها وتقطع عليها خيط التفكير بهدوء.

لم تستغرق الرحلة أكثر من خمس عشرة دقيقة قبل أن تلج السيارة زقاقها وتقترب من دارها، حيث شعرت بالراحة لأن الزقاق كان فارغا تماما، وكل أبواب الدور مغلقة، فهذا أفضل من أن يرصدها فضول إحدى الجارات فتتساءل عن سبب عودتها وحيدة في سيارة أجرة، ففي الآونة الأخيرة لم يعد مستحبّا أن تستقلّ المرأة سيارة الأجرة لوحدها، خصوصا أثناء الليل، إذ ازداد عدد النساء اللواتي يُتاجِرن بأجسادهنّ بأبخس ثمن قد يدفعه أي سائق.

بحثت عن مفتاح باب الدار في حقيبتها كي لا تضطر لقرع الجرس رغم علمها بأن أولادها ينتظرونها الآن، وبمجرد أن وضعت المفتاح في القفل فُتح الباب وظهر ابنها يلهث كما لو كان يجري، وقبل أن تسأل عن حاله، قذفَ بوجهها

كلمات كادت تُفقدها توازنها: رجال... الأ... الأمن... كا... كانوا هنا، ت... تح... تحدّثوا إلى با... بابا...

ما زالت تحتفظ برأسها، ستمرّ دقيقة ظلّت خلالها مسمّرة على الباب قبل أن تتمكن من استيعاب الخبر.

إذاً كان "سلام" مُحقّا!

26

بعد أن ودّع "آمنة"، التحق سلام بعمله في تمام التاسعة...

كان أوّل ما فعله هو التدقيق في لوحة مراقبتها مع عائلتها.

لم يجد ما يلفت الانتباه، ولم يستطع التأكّد فيما إذا كان المناوب الذي سبقه قد لاحظ أمرا ما، فالتقرير الآن بين يديّ المدير.

قرّر مُسبقا بأن ينفّذ خطته التي وضعها للتمويه، سيربط خط الطاقة المزوّد للذاكرة الخاص بزوجها مع خط شخص آخر فتضطرب المعلومات مما سيضطره إلى استصدار طلب بزيارة لجنة الفحص إلى دارها، وهكذا يُصلح الخلل بنفسه مما سينقذ الزوج من المساءلة المحتملة.

كان عليه أن يختار شخصا لا يثير الشبهات، مريضا أو عجوزا، ليبدو الأمر طبيعيّا.

لم يجد مَن هو أفضل من رجل يشكّ بخيانة زوجته، وهو خيار مناسب لأن دار الرجل تقع ضمن نطاق الخطوط العشرين التي يغذّيها مولّد واحد تعمّد أن يكون صندوق مفاتيحه على حائط سطح دار "آمنة".

خطّط لكل شيء منذ البداية ليحميها هي وعائلتها من أيّ اشتباه، وليكون بإمكانه معالجة الشك قبل أن يصبح يقينا.

راجع سجّل رجلٍ جيّدا: فقد ساقه في حرب الثمانينات، وأدّت إصابته بشظيّة بين فخذيه إلى فقدانه لقدراته الجنسية. شيئا فشيئا فقد ثقته بزوجته التي صارت تغيب عن الدار فترات طويلة. من حسنات نظام البرمجة أنْ يمحو الذاكرة تدريجيّا، فلا يعود المرء يرى إلّا حاضره، وحاضر هذا الرجل كان خليطا بين الشك والنسيان، لكنّه حين يستعيد رأسه أحيانا ويصادف أن تكون الزوجة

غائبة، يستشيط غضبا فيضربها بقسوة حين تعود، وهكذا استحالت التقارير المتعلقة بهما قاموسا للكلمات البذيئة والأفكار غير السويّة مما يؤشر اضطرابا عقليّا.

كان "سلام" أحد الذين صمّموا هذه القاعدة البيانية، إلّا أنه لاحظ أن اختراقها لم يكن بالأمر الممكن هذه الليلة، فقد وُضعت شيفرات لمنع دخول بعض السجلّات، مما أثار قلقه وأعاد إليه مخاوف اليوم الماضي، رغم أن حواره مع مديره لم يكن فيه ما يشي بأنه محط شكٍّ.

من الجائز أن يكون هذا أسلوبهم لإيقاعه، أن يتّفقوا مع زميله المناوب على وضع شيفرات لا يعرف مفتاحها السري سواه، وحين يحاول فكّ الرموز سيصطادونه من خلال كاميرات المراقبة أو ربما من خلال اختراق حاسبته بوساطة عميل آخر.

كم من الوقت سيمرّ قبل أن يقبِضوا عليه متلبّسا؟!

لا بدّ أن يحاول مع ملف آخر، ليتأكّد مما إذا كان مُراقَبا، لا يثير الشبهات.

تذكّر المواطن (259) الذي يقع أيضا ضمن شبكة التجهيز التي تضم عائلة "آمنة"، هو معروف باختلال عقله تقريبا، فسجلّ ذاكرته الحديث يضم سلسلة طويلة من عبارات المديح والتمجيد التي يكيلها للسلطة والقائد ليثبت ولاءه، لا يبذل جهدا في شحن ذاكرته الاحتياطية، بل تعمّد إهمال الشحن كي ينسى ذاكرته البعيدة التي كانت تسحبه بين فترة وأخرى إلى منطقة محظورة، حيث يرتفع لديه منسوب النقمة على السلطة التي أعدمت أخاه قبل اثني عشر عاما إثر حملة تفتيش كشفت عن حيازة الشاب على كتب ممنوعة وقصائد شعر تذمّ القائد، ومنذ أن تسلّم جثمان أخيه ودفع ثمن الرصاص الذي أسال دمه وأزهق روحه

وهو لا يكلّ ولا يملّ من ترديد عبارات الشكر والثناء والتعظيم للقائد الذي أنعم عليه وعلى عائلته بالبقاء أحياء رغم خيانة الأخ!

... هذا مناسب جدّا، فمثله يمكن له أن يعبث بخطوط الطاقة دون أن يدرك عاقبة العبث، إضافة إلى كونه كبيرا في السن ومتقاعدا، وكان سابقا موظفا بسيطا، أي لا يملك قدرة ولا خبرة في التعاطي مع أمور فنية.

نقر مرة ومرتين، لكن الرقم (259) ظلّ جاثما على شاشة الحاسوب كحارس ضخم الجثة يأبى أن يتزحزح عن البوابة...

لم يتمكّن أيضا من ولوج هذه الصفحة!

... إذاً تعمّدوا تشفير كل السجلّات، عليّ أن أنتظر قدومهم في أية لحظة، لا مفر من اعتقالي.

تلفّت حوله خشية أن يكون صوته مسموعا، رغم أنه داخلي، لكنْ للجدران آذان كما يقال.

ماذا سيفعل في الساعات أو ربما الدقائق المتبقيّة قبل أن يُقبَض عليه؟

هل يتّصل بأمه ويُعْلمها بأنه سيسافر في عمل ولن يعود قريبا؟

لن تصدّقه، ففي المرات القليلة التي سافر فيها لحضور تدريب أو للاتفاق على شراء أجهزة

مع فريق العمل، كان يحضّر للأمر قبل عدّة أيام، يُخبرها ويُهيّئ لها كل مستلزماتها قبل أن يسافر، كما يوصي أخواته بالتناوب للمبيت معها لكونها تخشى المبيت وحيدة.

... لأطلب الإذن بالخروج لأمر طارئ، أستحق إجازة زمنية، سأقول إن أمي اتّصلت وهي مريضة جدّا عليّ اصطحابها إلى مستشفى.

سخر من هذه الفكرة...

فإذا كان حقّا مُراقَبا، أو موضع شكٍّ، لن يُسمح له بمغادرة المبنى لأي سبب كان!

لم يتبقّ أمامه إلّا أن يمارس عمله اليومي المعتاد، كأنّ شيئا لم يكن ويترك موضوع "آمنة" وزوجها حاليّا كي لا يثير مزيدا من الشكّ.

ثبّت سمّاعتيْ أُذْنيه، وشرع بفتح الصفحة المخصصة لجدولة توزيع الطاقة، لكن حاسبته لم تستجب له، بل أظهرت أمامه سلسلة من الرموز والأرقام البيض على شاشتها السوداء، صارت تجري بسرعة كبيرة، فحاول أن يعيد تحديث الحاسبة، وقبل أن يضغط الزر، فُتح الباب واقتحم مديره المكتب، فجمدت أطرافه وأدرك بأن ساعته قد حانت وأنه مُنع من الولوج إلى النظام من قبل الإدارة.

لم يجد كلمة مناسبة، بل نسي أن يقف استعدادا لتحية المدير بزيّه العسكري...

لكن مديره لم يبدُ أنه لاحظ ذلك، إذ اقترب بسرعة وانحنى واضعا يده اليسرى على المكتب قائلا بصوت متقطّع من أثر اللهاث: تمّ اختراق منظومة المراقبة، قُمْ بإتلاف ما تستطيعه من ملفّات يا "سلام"، حتى لو اضطررت إلى تحطيم الحاسبة.

اتّسعت حدقتاه وهو ينقل نظره بين المدير والشاشة كأنه يعجز عن الفهم...

كرّر مديره عبارته بنفاد صبر: نعم إنها مصيبة، الاختراق ليس من داخل البلد، إنها طائرات أمريكية مسيّرة، أخشى أن تكون الحرب بدأت وعلينا أن نستعد.

27

ساعتان مضتا منذ عودتها من لقائها مع "سلام"...

ما زال زوجها يغطّ في نوم عميق كأن شيئا لم يكن!

كيف يستطيع النوم بعد كل ما حدث؟

ماذا قال له رجال الأمن؟

لو كان هنالك ما يستدعي القلق لَما نام وتركها تتخبّط في حيرتها.

كل ما عرفته من ابنها أن رجال الأمن تحدّثوا مع أبيه لعشر دقائق تقريبا، فسمعهم يذكرون جارهم الذي يسكن الدار الثالثة على يمين دارهم.

ليس عليها أن تقلق طالما أنّهم لم يصعدوا إلى السطح ولم يفحصوا صندوق المفاتيح، ربما هي جولة تفتيشية معتادة، حيث لم يطلبوا مفتاح الصندوق الذي لا يعرف زوجها مكانه، ولو كانوا طلبوه لما خرجوا قبل أن تعود هي.

نهضت من مكانها على سريرها...

تعمّدت هذه المرة أن تضغط على حافته بثقلها، ليُحْدث صريرا يكفي لإيقاظه، لكنه اكتفى بأن تململ وأخفى وجهه تحت الغطاء. خرجت من غرفتها فوجدت، في صالة الدار، أن ابنتها الكبرى ما زالت تتمدّد على الكنبة، تشاهد فيلما عربيّا قديما، بينما استسلمت الابنة الصغرى للرقاد على أرضيّتها. وبّخت الكبرى على إهمالها، فقد تصاب الصغرى بالبرد في هذا الوقت من الشتاء، خصوصا أن البساط المتهرّئ لن يكفي لتدفئة الأرضية...

ثم إن السهر حتى هذا الوقت يعني استهلاك مزيد من النفط الذي تكافح للحصول على حصّة العائلة منه عن طريق البطاقة التموينية: إنْ رغبتِ بالسهر أكثر عليك أن تُطفئي المدفأة وتكتفي بالتدثّر بغطائك!

تململت الكبرى، نهضت متثاقلة لتطفئ المدفأة، وتجرجر أختها إلى فراشها، وحين عادت كانت أمها قد احتلّت مكانها على الكنبة، فما كان للبنت إلّا أن تطفئ جهاز التلفاز وتتوجّه إلى غرفة نومها...

استوفقتها الأم، طلبت منها أن تقترب أكثر، فأطاعت وانحنت...

همست في أُذنها: هل تظنّين يا ابنتي أن علينا مغادرة البلد؟

فوجئت الفتاة، حدّقت في أمها طويلا ثم ابتسمت ساخرة وهي تستعيد استقامة جذعها: بالنسبة لي أُفضِّل السفر جوّا، وبما أن الطيران محظور علينا أُفضِّل الانتظار حتى ينتهي الحصار ويُرفع الحظر.

من الطبيعي أن تسخر من الفكرة، فهي لن تصدّق بأن هنالك فرصة للسفر أو للهروب في مثل هذه الظروف، حتى إن سارت الأمور كما خطّطت أمها...

هل ستوافق على السفر أو الهروب وهي تنوي الزواج من جارها؟!

ربما ستعترض فتفضح أمرهم...

عقبة أخرى!

سخرت من نفسها هي أيضا...

فأيُّ سفر وأيُّ هروب، بل أيّة عقبة أخرى، وهي ترقد على قنبلة موقوتة؟

فمهما كانت الأسباب لن تمرّ زيارة رجال الأمن اليوم من دون عواقب، حتى لو كان الجار في الدار الثالثة هو المقصود، سيتم البحث والتدقيق في صندوق

المفاتيح المثبت على حائط سطح دارها، وسيُكتشف أنه تعرّض للعبث، وبما أنها المسؤولة عن مفتاح الصندوق، ستكون المشتبه الأول في التلاعب به ولن يمر وقت طويل قبل أن يُودعوها السجن، هذا إذا لم يعتقلوا كل أفراد عائلتها.

كأن لقاءها مع "سلام" لم يكن كافيا ليُحيي جرح تلك الليلة التي قضتها في السجن...

ها هي زيارة رجال الأمن تُعمّق الجرح الذي فقأه.

مرّت سنوات حياتها أمامها صورا عديدة، معظمها يعكس حجم التعب الذي عانته، صعدت غصّة إلى حلقها فسمعت صوت بكائها: تعبتُ كثيرا، لن أحتمل ليلة أخرى في السجن.

كيف يمكن لها أن تنسى تلك الليلة واليوم الذي تلاها؟

كل خوارزميات نظام البرمجة لم تكن كافية لمحو ذاك الجزء من ذاكرتها...

ما زال صدى صراخ "نبيل" يرنّ في أذنيها، مع وقع لطماته التي أدمت وجهها وألهبت جسدها وجعا، أيضا توسّلات أمها وانهيار أبيها على مقعده باكيا عاجزا عن ردعه أو عن اتّخاذ قرار

بقتلها أو بمنحها فرصة أخرى لتكفّر عن خطيئتها.

لولا تدخّل أخيها الأصغر لكانت الآن ترقد في قبر، ربما في حديقة الدار كما هدّد أخوه الأكبر أن يفعل.

استطاع بحكمته أن يُقنعهم بأن عارها، فيما لو انتشر الخبر، سيكون كافيا لتحطيم سمعة عائلتهم إلى الأبد، وبما أن الحادثة ما زالت محصورة في العائلة والفتاة ما تزال عذراء، "لم يمسسْها بشر"، فمن الأفضل الإبقاء عليها حيّة مع فرض قيود تُحدّد حركتها وتزويجها لأول من يتقدّم لطلب يدها، ونزولا عند رأي كل

الأطراف، تراجع "نبيل" عن قراره بقتلها وأصدر أوامر مشدّدة بمنعها من الخروج والدراسة ريثما يتأكّد فيما إذا كان الجيران أو غيرهم قد علموا بما جرى.

لحسن الحظ، تكتّمت صديقتها "رفل" على الأمر خشية أن ينالها هي الأخرى عقاب أبيها واكتفت بقطع علاقتها مع "آمنة"، ومما ساعد على كتمانها للأمر حكمة أمها وغياب زوجها تلك الليلة في مناوبته داخل المستشفى التي يعمل فيها طبيبا. تلك الليلة، حين حضر "نبيل" لاصطحاب أخته عند الثامنة، لم تجد ما تُخبره به سوى أن "آمنة" خرجت منذ نصف ساعة بعد أن انفضّت حفلة الميلاد مبكّرا. اضطرّت الأم لمساندة ابنتها في كذبتها فأخبرت "نبيل" بأنها عرضت على "آمنة" أن تُوصلها إلى دارها، لكنّها رفضت مدّعية أنها ترغب في السير على قدميها إلى الدار التي تقع على مسافة قريبة.

كانت "رفل" وأمها تأملان أن تعود "آمنة" بأسرع وقت، فعادة يمرّ الوقت سريعا في اللقاءات العاطفية وينسى العشّاق أنفسهم، وربّما نسيت نفسها في حضن "سلام"!

مرّت الساعات طويلة، لم يهدأ فيها رنين هاتف أهل "رفل" الذي استمرّ حتى طلوع الفجر.

لم يدرك "نبيل" ما أخفته عنه "رفل" وأمها إلّا بعد أن تلقّى اتّصالا من مركز شرطة صباح اليوم التالي يدعوه لاستلام أخته التي قضت ليلة فيه. صرخت أمه مرتعبة ظنّا منها بأن ابنتها تعرّضت لحادث سير أو خطف أثناء عودتها ليلا إلى الدار. هرع أبوه لكتم صرختها خشية أن يسمع الجيران فيتساءلون عن الأمر، فأنْ تكون قد خُطفت يعني أنها قُتلت وعليهم تسلّم جثمانها أو تعرّضت للاغتصاب وأُلقيت في مكان مهجور لحين عثور الشرطة عليها، وهذا يجعل الفضيحة أكبر، لذا من الحكمة أن يهدأ الجميع حتى يتبيّنوا الأمر.

كان ينوي الذهاب وحده إلى مركز الشرطة ليجنّب أباه العليل بمرض القلب أية صدمة محتملة، لكنّ الأب أصرّ على مرافقته بعد أن أكّد له الضابط عبر الهاتف أنّها ما تزال حيّة، لذا أراد أن يكبح جماح غضب ابنه المحتمل.

حتى لو قُدّر لـ"آمنة" أن تنسى اسمها يوما، فإنها، مطلقا، لن تنسى نظرة أبيها حين التقت عيناه بعينيها في غرفة الضابط، وكم تمنّت لو الأرض انشقّت وابتلعتْها قبل أن تشهد انكساره ودموعه التي لن تكون كافية لغسل ما علق بشرفه.

أذعن الضابط لتوسلاته، وأحجم عن فتح سجلّ إجرامي لها، فحجزُها ليلة في سجن النساء كان كافيا لتأديبها ولإعطاء درس لعائلتها لتهتمّ أكثر بتربيتها، كما قال مُعبّرا عن كرمه.

مرّت كل صور العقاب التي ستتلقّاها أمام عينيها وهي تعبر غرفة الضابط وتجتاز ممرّات مركز الشرطة، تجرّ أذيالها خلف أبيها وأخيها الذي استحال وجهه إلى فرن يغلي، وحين دلفت السيارة، تمنّت لو يطول الطريق فتستمرّ الرحلة حتى موتها كي لا ترى وجه أمها الذي تعشقه، فعصرت كل أفكارها لتجد سيناريو مناسبا للحادث، رغم أنها تدرك ألّا أحد سيصغي لما تقول.

فرقٌ بين معرفة الدرب والسير فيه، وهي، حينما بدأت رحلة حبّها مع "سلام"، كانت تعرف ماذا تريد، لكنّها كانت تجهل إلى أين سيقودها السير في دربه.

منذ تلك الليلة، لم تعد كما كانت، ولم تعد عائلتها كما كانت، اختفت الضحكات، وتوقّفت مشاغباتها مع إخوتها.

احتملت بصبر قسوة نظرات أمها في غدوّها ورواحها وعزوف أبيها عن الحديث إليها، حتى أصبحت منبوذة تماما، وعوضاً عن حرمانها من الدراسة اقترح الأخ الأصغر أن تنتقل العائلة إلى دار أخرى في منطقة بعيدة، كي تستأنف دراستها

في مدرسة جديدة بعيدا عن خطر افتضاح أمرها في المدرسة الحالية، فيما لو نطقت صديقتها "رفل" بما لا يُحمد عقباه.

من دار إلى أخرى، استقرّ أفراد عائلتها في منطقة لا يعرفهم فيها أحد، وأقفلوا باب دارهم عن أية علاقة مع الجيران، فيما خضعت هي لرقابة شديدة حرمتها من التمتّع بحياتها الجامعية كغيرها من الفتيات، وما أن طرق الباب أحدهم خاطباً إيّاها، وافق الجميع فورا رغم اعتراضاتها وصرخاتها بأن العقاب استمرّ خمس سنوات كافية لتعيدها إلى رشدها.

كانت ترغب بإكمال دراستها العليا أملا في أن تكسب الوقت قبل أن تتزوج بأول رجل تقدّم لطلب يدها، لكن العائلة اتّخذت القرار دون أن تعلم بأن جرح "سلام" ما زال ينزف حتى فقد قلبها آخر قطرة دم تكفي لإبقائه حيّا. ورغم كل محاولات الزوج العاشق، لم تتحرّك مشاعرها، بل وجدت نفسها دون أن تشعر، تصبّ جام غضبها عليه وتتلذّذ في تعذيبه وإهماله بأنْ تقابل غرائزه ورغباته المشتعلة كجثة هامدة، بل بالتقزّز أحيانا. لسنوات عدّة، لم يطرأ على بالها أنها بسلوكها هذا مع زوج عاشق ليس له أيّ ذنب في كل ما حصل لها، إنّما كانت تعاقب "سلام".

- ليس من عادتك النوم في الصالة!

هل كانت تنام حقّا؟!

لا تتذكر كم من الوقت مرّ على جلستها بهذا الوضع، ربما غفت قليلا لكثرة ما أرهقت الأحداث والأفكار دماغها.

حاول زوجها أن يدثّرها بغطاء، لكنها دفعت عنها الغطاء وهمّت بالنهوض.

ـ يبدو أنني غفوت بانتظار أن تستيقظ أنت؟

- لماذا؟ هل اشتقتِ لي؟!

ـ بل لأعرف ما الذي جرى بينك وبين رجال الأمن.

- الغريب أنه منذ زارنا رجال الأمن وحتى الآن لم... أقصد ألا تلاحظين أن رأسي لم يغادرني؟ لم يطبّقوا البرمجة الليلة!

28

ـ يجب أن تفعلوا شيئا... القائد غاضب جدّا من هذا التأخير، سندفع رؤوسنا ثمناً إن لم نعالج الموقف بأسرع وقت... مضى شهر حتى الآن وأنتم تحاولون... ما الذي يؤخّركم؟!

عمّ الصمت، نظر العملاء إلى بعضهم بانتظار أن يتطوّع أحدهم للرد على المدير، فانبرى "سلام": نحتاج إلى مواد احتياطية... الضرر كبير... إنها قرصنة أكبر من حدود إمكانياتنا.

ضرب المدير مكتبه مُستفزّا: لا تنقصكم الإمكانيات، بعد كل تلك التدريبات التي تلقيتموها، كيف تجرأون على القول بأنكم غير قادرين.

- الحاسبات أصبحت غير صالحة سيدي، ذكرنا ذلك في تقاريرنا منذ اليوم الأول ولم يتم تزويدنا بحواسيب جديدة أو حتى بأدوات احتياطية، أية محاولات ترقيعية لن تنفع بل ستزيد من الفوضى.

ـ لا تحدّثني عن الفوضى يا عميل (س). هل توجد فوضى أكثر مما يحدث؟! الناس تسرح وتمرح دون أن نعلم ماذا يخططون وماذا يفكرون، سيقود ذلك إلى انفلات أمني.

- لا أظن سيدي، لا أحد يجرؤ على مقارعة السلطة، لقد ترك نظام البرمجة تأثيرا كبيرا على الناس فلم يعودوا يجرؤون على التفكير أو التذكر، لم تعد لديهم ذاكرة تماما.

ـ لا نعمل بالفرضيات، نحتاج إلى بسط الأمن، نحن على أعتاب حرب مع عدوّ سيستغل أية نقطة ضعف، والمواطن سيكون نقطة ضعفنا الوحيدة في حال عمّت الفوضى، سأمنحكم أسبوعا واحدا فقط لتجدوا حلّا لهذه المشكلة.

- ليس سهلاً من دون مواد احتياطية، أو حاسبات جديدة.

- سيصل البعض منها خلال يومين.

أشار المدير بيده لهم أن ينصرفوا، واستوقف "سلام" بإشارة من يده، وظلّ يراقب آخر من خرج، ثم أشار إلى حارسه الذي يقبع عند الباب أن يخرج ويغلقه من خلفه...

كان "سلام" يراقب بكل حواسه، فحين تطوّع للكلام كان يدرك أن جرأته لن تمرّ دون عواقب...

اقترب منه مديره، وضع يداً على كتفه، أخرج كلماته بحدّة وهو يكزّ على أسنانه: لن أحاسبك على جرأتك التي ستفسح المجال لغيرك أن يناقش الأوامر، لكني سأحاسبك بشدّة إن مرّ هذا الأسبوع دون أن تجدوا حلّا.

أومأ برأسه طاعة، أدّى التحية العسكرية قبل خروجه، وحين جلس إلى مكتبه، لام نفسه كثيرا لأنه تكلّم وناقش المدير، فسياسة "نفّذ ثم ناقش" واضحة تماما، لا يُسمح لأحد بخرقها إلّا إذا كان مستعدّا لدفع رأسه ثمنا لإثبات وجهة نظره.

نظر إلى حاسبته الصمّاء أمامه، تذكّر قصة أحد الجنود الذي لم يحتمل الحرب فضرب ساقه بفأس وفصلها عن جسده كي يتحوّل إلى معاق يُعفى من المشاركة في جبهات القتال، لكنّه أُعدم حين أثبت التحقيق بأنه قام بذلك عمداً.

تمنّى لو استطاع يوما أن يحزّ رقبته ليفصل رأسه عن جسده ويتخلّص من عبء هذا الرأس الذي قاده إلى هذا المكان.

لم يكن يحلم بأكثر من أن يرتاد كلية الهندسة أو الطب، كما تمنّت "آمنة"، وأن يُنشئ معها عائلة صغيرة، لكن أحلام السلطة كانت أكبر من أحلامه، وكمواطن صالح عليه أن يُسخّر أحلامه أو يُقزّمها لتكون جزءا من أحلام السلطة. حين وافق صاغرا على تنفيذ المشروع الذي ابتكره هو ومجموعة من الشباب الموهوبين ظنّ أن دوره سينتهي عند هذا الحد وسيُكافأ بمبلغ مالي أو وظيفة جيدة، لم يكن في حسبانه مطلقا أن يتحوّل إلى عميل بملابس خاكية. تذكّر مقولة المهاتما غاندي (لا أقرّ بأن قوة من هو أعظم مني تسيطر عليّ)، بغرور المراهق آمن لفترة ما بهذه المقولة حتى وجد نفسه يجاور الفتاة التي عشقها في سيارة شرطة متّهما باختلاس قبلة.

أيّ عدوّ للحب ذاك الذي شطر الكلمة بحرف الراء ليحيلها إلى حرب فصارا نكطين متوازيين لا يلتقيان؟!

قُرابة اثني عشر عاما قضى من حياته أمام هذه الشاشة، يقضي ليله نكفّاش في المكتب ليعود صباحا إلى غرفته مُرهقا وحيدا، ينام حتى المساء لينهض ثانية، يقضي بعض احتياجات أمه ثم يعود إلى المكتب عند التاسعة ليلا.

مئات الأيام مرّت، ليس فيها يوم يختلف عن آخر، لم يعد يقرأ كالسابق، لم يعد يكتب سوى خربشات أثناء مناوبته ليلا، ثم يمزقها فور أن يطلع الصباح كي لا تلتقطها كاميرا مراقبة أو عين مخبر.

دقّق النظر في الحاسبة ثانية...

ماذا لو وصلت المواد الاحتياطية فعلا خلال يوم أو يومين؟

هل عليه أن يعيد خلال أسبوع فقط بناء نظام قضى أربع سنوات في إعداده وتطويره؟

يخشى أن تفضحه أفكاره، أن تعانده وتنتصب أمامه كمارد عملاق، يحاول محوها بكل الأساليب، يغوص في أفكار كثيرة يبتكرها من صور فتيات عاريات في مجلة خبّأها في غرفة نومه، يرتّب احتياجات أمه ووصاياها، يسترجع الصور التي يصادفها أثناء قيادته السيارة ذهابا وإيابا من داره إلى مكتبه، فتاة في عمر السابعة تتسوّل عند تقاطع مرور، عجوز تنقر زجاج سيارته تطلب مساعدة، شاب بساق واحدة يتوكّأ على عكاز أحيانا، ويجلس على الرصيف حين يتعب، بانتظار صدقات المارّة.

و"آمنة"... الفكرة التي تتوالد أبدا...

ليته يتجرّأ على ترك كل شيء خلفه والرحيل معها إلى أي مكان. صحيح أنها كبرت وتغيّرت ملامحها، لكن ما زالت فيها تلك الروح التي عشقها، لو ترضى فقط! لن يتوانى عن العناية بها، بأولادها أيضا، يكفي أنهم أولاد "آمنة"، حتى لو كان أبوهم شخصاً آخر.

ما الذي تبقّى له هنا؟

ستنتهي مهلة الأسبوع وسيماطل للحصول على أسبوع آخر آملا أن تبدأ الحرب وتنشغل سلطة البلد بها ثم سيختار توقيتا مناسبا للهرب مع أمه إلى محافظة في الجنوب، أو الشمال، فنتائج حرب كهذه معروفة لديه، هو الخبير بشؤون السلطة، حيث لن تمضي أيام قبل أن يستسلم الجيش وتنتهي هذه الحقبة إلى الأبد.

ماذا سيكون مصيره مع كل من ساند السلطة؟

إمّا الاعتقال أو القتل، أو فقدان عمله في أحسن الأحوال.

يجب أن يُقنع "آمنة" بمساندته في خططه، لن يستطيع فقدانها ثانية بعد أن عثر عليها.

أطبق على رأسه بكلتا راحتيه كأنما ليحيل بينه وبين التصدع أو الانفجار، سيرضى بكل الأفكار والصور مهما كانت مؤلمة، شرط أن يطرد من تفكيره ذلك الخاطر القاتل، بأنه تعمّد تأخير إصلاح منظومة البرمجة شهراً كاملا ليتيح لها فرصة الهرب وليعيد برمجة ملفها فيمحو منه كل ما يثير الشكّ!

29

ـ ستبيع أمي الدار وتعطيني حصّتي من إرثي.

- من يشتري في مثل هذه الظروف؟ حتى إن فعلتْ لن يكون كافيا. أنتِ وأولادك لا تملكون جوازات سفر!

ـ سيتولّى ذلك شخص في الشمال.

- لن أسمح لك بالمخاطرة بحياة أولادي.

ـ إذاً تعال معنا.

- العاصمة تحترق يا "آمنة"، الدخان الأسود يحجب حتى الشمس عن سماء العاصمة، الناس تهرب بأرواحها وما خفّ حمله إلى المحافظات. لم يتبقّ سوى أيام على التوقيت الذي وضعوه لاجتياح البلد، الإعدامات في كل مكان، جُنّ جنون السلطة. كل من يتلفّظ بكلمة ضدّها أو يُمسَك متلبّسا بهرب خارج الحدود يُعدَم. الحراسة مشدّدة جدّا، فكيف لك أن تخاطري بحياة أولادنا؟!

ـ أجدها فرصة مناسبة للهرب، كما ذكرتَ، العوائل تترك العاصمة إلى محافظات أخرى خوفا من القصف.

- نعم، إلى محافظات الوسط والجنوب، لكن ليس إلى الشمال، لا يُسمح بالمرور من الطرق المؤدية إلى شمال البلد سوى للأرتال العسكرية.

ـ هل تحسب أنني الوحيدة التي تفكر بهذا الأمر؟ عشرات العوائل عبرت ضمن الأرتال العسكرية! كل شيء يمكن حلّه بالمال.

- هذا جنون، لن أشارك فيه، اذهبي لوحدك.

ـ لن أترك أولادي خلفي، أنا من عانى الأمرّين في تربيتهم بينما قضيت وقتك بالنوم.

- لأنك لم تسمحي لي، لأنك وضعت حاجزا بيني وبينهم كذلك الحاجز الذي وضعتِه بيني وبينك منذ الليلة الأولى لزواجنا. هل تظنّين أنني لم أفهم أنك لم تحبيني أبدا، وأن قلبك كان مع رجل آخر؟ لقد عرفت كل شيء منذ البداية! أم تظنّين أنني أعمى لأتزوج فتاة دون أن أعرف شيئا عن أصلها وعائلتها؟ لكنني رضيت، لأنني أحببتك ولأنني افترضت أن ما حصل طيش مراهقة.

ـ ما كان لك أن تصمت، أحببتني وأردت امتلاكي فقط، لم يكن مهمّا لديك إن أحببتك أم لا، جسدي هو كل ما كنت تحتاجه.

- لم يكن كافيا، كنت أريدك بكل ما فيك، لكنك لم تفهمي. هذه هي مشكلة جميع النساء! تظنّ الواحدة منهنّ أنها تمنح كل شيء للرجل بمجرد أن امتلك جسدها فتتصرف كأنها ضحية أو مستلبة، لا تفكر كم ستأخذ منه بالمقابل.

ـ هه، ماذا أخذت منك؟ سنوات من الجوع والتعب حتى فقد وجهي ملامحه وشاخت كل خلية في جسمي! عشرون سنة قضيتها في السعي لتأمين طعام لأولادنا براتبك الذي لا يكفي لأسبوع وراتبي الذي لم أنل منه أيّ ترف قد تحظى به صاحبات الرواتب. أيام طويلة، عشرات بل مئات الأيام قضت وأنا أقف في صفوف الانتظار للحصول على اسطوانة غاز أو بضعة لترات من النفط، البيض، اللحم، الدجاج المدعوم، بينما كنت منشغلاً بلعب الدومينو مع العاطلين من أصحابك أو بالنوم. لم أعد أستطيع الاحتمال أكثر، أريد لأولادي أن يحيَوا حياة مختلفة، لا أريد لتقويم أيامهم أن يضم تواريخ توزيع حصص الغذاء والنفط والغاز، لا أريد لهم شهادات جامعية لا تساوي ثمن الورق الذي

طُبعت عليه. هل تعلم؟ أنت لم تكن حقيقيّا يوما لأنك لم تعانِ، من يعاني فقط هو من يكون حقيقيّا، أما أنت فمجرد شبح إنسان.

- ربما، لا فائدة من هذا الحوار الآن، فات أوانه يبننا، تريّثي فقط... أقصد...

اقترب منها وهمس في أذنها وهو يتلفّت حوله: تعلمين أن القوات الأمريكية ستدخل البلد ومعها أكثر من ثلاثين دولة، ربما سينهار هذ النظام. التغيير قادم، ألم تشاهدي الأخبار؟ الحرب تدور في الجنوب، قوات التحالف على وشك احتلاله، ما هي إلّا مسألة أيام...

ـ متى كان الاحتلال حلّا؟ أيّ تغيير هذا الذي يمكن أن تجلبه الحرب، الموت، الدمار؟ كيف يجرؤ الناس على انتظار الحرائق التي ستشعل وطنهم إلى الأبد؟ أم ترى بأن هذه الأربع والثلاثين دولة ستُلقي ورودا بدل القنابل؟! لا جدوى، حين يعلو صوت الرصاص يخفت صوت الحرية وتختنق الحياة.

- اخفضي صوتك، لا أريد الموت في اللحظات الأخيرة قبل الحرية!

دفعته بخفّة مبتعدة عن فحيح صوته الذي أزعجها: ما لك تهمس يا رجل؟ هل تظنّ أنك ستنال الحرية وأنت تفحّ هكذا كالأفعى؟ الحرية لا تُولَد من رحم الخوف وأنت نشأت على الخوف، ككل الناس، جميعنا تشرّبنا الخوف حين سلبوا ذاكرتنا الحيّة، حين وضعوا أيديهم على رؤوسنا وتخلّلوا أدمغتنا. الآن تعطّل نظام البرمجة، أم ربما تعمّدوا تعطيله ليتمكنوا من اعتقال وقتل كل من يحلم بالحرية. لم يعد أحد يراقب ذاكرتنا الحاضرة ولا حتى الماضية. تستطيع أن تقول ما تشاء، ومع ذلك تخشى أن تتحدّث بصوت مسموع! ألا تفهم يا رجل؟! لقد تمكّنوا منّا تماما حين برمجونا على الخوف، لم يتبقّ لنا إلّا أن نقول وداعا للحرية.

- لن يطول الأمر قبل أن يستيقظ الناس.

قالت بمرارة ساخرة: من لم يوقظه ما جرى حتى الآن، لا يمكن أن يستيقظ أبدا.

نفض يديه منها، لم يعد لديه ما يقوله، يعرفها جيّدا حين تختتم الحوار بإصرار لا يختلف عن جملة البداية، مما يشي بعدم اقتناعها، دخل غرفة نومه بينما انهارت باكية تندب شيئا لا تعرف ما هو بالتحديد، رفعت كفّها دون وعي تلطم جبينها وهي تتمتم: جبانة، أنا جبانة، كان يجب ألّا أثق به.

كأن هذا الاكتشاف أراحها، أزاح عن كاهلها حملاً ثقيلا، فمسحت دموعها وهي تتلفّت حولها خشية أن يكون أحد أولادها قد سمع شيئا، ولمّا تأكّدت بأنها لوحدها في الصالة وأن زوجها دلف إلى غرفة النوم وأغلق الباب، هرعت إلى هاتفها، أدارت رقماً، وقبل أن تكمل الاتصال وضعت سمّاعة الهاتف وعادت أدراجها تفرك يديها كأنما لتزيل آثار الأرقام، فقد حذّرها "سلام" من أن تتصل به لأي سبب كان، خشية أن يكون هاتفه مراقَبا.

لم تسمع منه منذ أسبوعين!

في آخر اتصال له طلب منها أن تستعد للمغادرة وتنتظر إشارة منه وها هي تنتظر، تلوّح لزوجها بالرحيل وفي داخلها تعلم جيّدا بأنها لن ترحل دون مساعدة "سلام" الذي تخلّى عنها للمرة الثانية بعد أن أنعش فيها بعض أمل، لا يمكن أن ترجوه من الزوج الذي يرفض فكرة مغادرة البلد، بل يعارضها بشدّة وقد يسلبها أولادها إن هي أصرّت على الرحيل.

هذه ليست المرة الأولى التي يخذلها فيها رجل!

ما الفرق؟!

"سلام"، زوجها، أبوها الذي قاطعها سنوات طويلة حتى مماته، أخوها "نبيل" الذي رهن حياتها لرجل حرمها من تحقيق أحلامها بإكمال دراستها العليا!

... لم يكن ذنبهم أنني قايضت أحلامي بخوف.

شعرت بألم حادّ أسفل بطنها، ضغطت على مكانه بقوة كمن يحاول أن يدفعه بعيدا، لكنّه تضاعف، صاحبته حرارة ورطوبة سائل أحمر تسلّل بين فخذيها ولوّث موضع الثوب أسفل البطن، قفزت مذعورة وتذكّرت أنها فوّتت موعد الطبيبة للمرة الثانية.

30

- أين ابنكِ؟ لا يجب أن يظلّ خارج الدار بعد الساعة الخامسة عصرا! ألا تخشين أن يتعرّض للخطف أو القتل؟!

ـ يلعب مع أقرانه قريبا من باب الدار. اذهب بنفسك واطلب منه الدخول واحكم إغلاق الباب ككل يوم. لكن قبل ذلك اذهب إلى الفرن واشترِ لنا خبزا للعشاء.

- لماذا لم تفعلي ذلك خلال النهار؟ الفرن يُغلَق عند الساعة الخامسة عصرا. والشوارع تخلو من المارة!

ـ نسيت! أم عليّ أن أتذكّر كل شيء؟

دخل الغرفة لدقائق معدودة، ثم خرج يحمل محفظته، وسار خارجا باتجاه الباب، حيث نادى ابنه فانصاع له.

في الطريق إلى الفرن، كان الشارع شبه فارغ...

أمّهات يجمعن صغارهن لينتهي نهار من اللعب، ثم تبدأ ليلة أخرى لا تُسمع خلالها سوى أصوات الرصاص، والعجلات التي تمرّ سريعا فلا يمكن للمرء أن يفرّق فيما إذا كانت عسكرية أو مدنيّة، وبين فترة وأخرى يُخرس الأصوات مُحرّك طائرة تشقّ السماء فتحدث دويّا يزلزل الأركان.

بخطوات متعجّلة، استطاع بلوغ الفرن كأنه في سباق مع الزمن!

من حسن حظّه أنه وجد بضعة أرغفة عبّأها البائع في كيس بلاستيكي على عجل كأنما ليتخلّص منها ومن الزبون الذي أخّره لبضع دقائق عن إغلاق الفرن.

لم تكن المسافة بين داره والفرن سوى عشر دقائق، لكن هجوم جيوش الظلام بسرعة كبيرة جعله يشعر بأنه قضى نهارا يسير مسافة كهذه، فخثّ الخطى ليصل الدار وقلبه يخفق وجلاً، كأن الأرض انشقّت وابتلعت الناس جميعا فلم يعد أحد يسير في الشارع سواه.

سمع أزيز مُحرّك خلفه، لذا قذف بنفسه إلى الرصيف بعيدا عن الشارع، ليتجنّب أن تدوسه دراجة نارية اجتازته بسرعة، وابتلع ريقه، ثم حثّ الخطى أكثر.

في الآونة الأخيرة، بعد ثلاثة شهور من الحرب، كثرت حوادث القتل والسرقة التي يرتكبها قتلة يقودون دراجات بخارية، لكنه اطمأنّ حين غابت هذه الدراجة النارية في عمق الشارع ولم يعد يسمع صوتها بينما كان يقترب من باب داره.

في المطبخ، كانت "آمنة" تُعدّ العشاء، حين اقترب منها الصبي وهمس في أذنها: هل انتهت مهمّتنا على سطح الدار يا أمي؟

ـ لا تذكرْ هذا الأمر ثانية! انتهت بالتأكيد. ألا تلاحظ أن رؤوسنا عادت إلينا ولم يعد من وجود لنظام البرمجة؟

- لك الفضل في ذلك أمي، الجميع صار يعلم بأن البرمجة قد تعطّلت بسبب ما فعلته أنت بصندوق المفاتيح.

نظرت إليه غير مُصدِّقة، أمسكت ذراعه، هزّتها بعنف: هل جُننت؟ ألمْ أطلب منك ألّا تُخبر أحدا بالأمر؟ ثم من قال لك إني من أَوقفَ البرمجة؟ ما هي إلّا صدفة! ففي المرّات الثلاث التي فتحنا فيها صندوق المفاتيح لم أفلح إلّا في تثبيت بعض الأسلاك المرتخية...

- لا تخشيْ شيئا يا أمي، لم يعد أحد يهتم بهذا الأمر، لن ينالنا سوء، أظن أن علينا تحطيم صندوق المفاتيح أو بيعه.

ـ دعه في مكانه، ليس أكثر من خردة، كساعة أبيك العتيقة!

- إذاً لم يعد بيننا سرّ؟

ـ ولن يكون، فأنت لا تحفظ الأسرار، ابتعدْ ودعني أكمل عملي.

أكملت إعداد العشاء وتركتهم يتناولونه لتختلي بنفسها في غرفتها، فهي تحتاج إلى الراحة بعد يوم طويل من أعمال الدار التي لا تنتهي.

مُذْ دخلت القوات الأجنبية العاصمة ومحافظات البلد الأخرى، توقّف كل شيء، العمل، القانون، الإذاعة والتلفاز، والكهرباء التي أعيدت إلى العمل قبل أسبوع فقط...

كل شيء حولها يوحي بحياة بدائية، وها هي تقضي وقتها في أعمال الدار بعد أن أُغلق مقر عملها، لا تربطها صلة بالعالم سوى عائلتها.

لو استطاعت فقط الخروج من البلد في خضمّ هذه الأحداث!

لكن خشيتْ من تعرّض أولادها للقصف الجوي، فلم يتبقّ لديهم ما يتمسّكون به سوى الحياة.

كان يجب أن أصغي لـ"سلام"، أن أرافقه، وحده كان قادرا على إخراجي من هذا الجحيم!

أين هو الآن؟

اختفت أخباره.

تلقّت منه مكالمة قبل الغزو بأسبوع، حذّرها فيها مما سيحدث وتوسّل إليها أن ترافقه فكان ردّها: عندما تأخذ المرأة قرارا بالزواج وإنجاب الأطفال، فإن الحب يبدأ بطريقة ما لينتهي بطريقة أخرى، حيث نبني كل شيء من أجل

حياة أطفالنا، وبما أنني تركت الحب ورائي قبل الزواج، فلم يعد لديّ سوى أطفالي، لا أريد أن أحمّلك همّا آخر، انفذْ بجلدك.

هل نفذ بجلده حقّا؟

أمِ اعتُقل كالعديد من أتباع السلطة وذوي المناصب والذين يعملون في أماكن حسّاسة حتى وإنْ لم يكن لديهم مناصب سياسية أو عسكرية؟

إنه أحد هؤلاء، ترى ماذا حدث له؟

ما زالت تحفظ عنوان بيته، فلِمَ لا تذهب لسؤال أمه عنه؟

هذا فيما لو كانت الأم ما تزال تقيم هناك!

فربما سافر واصطحبها معه أو ربما هرب وتركها مع إحدى أخواته، وربما تكون دارهم مُراقَبة ومن غير الآمن أن تُطرَق بابها...

حتى إن حاولت الوصول إلى هناك، كيف ستفعل ووسائط النقل صارت شحيحة؟!

ألقت برأسها على وسادتها كأنها تحاول أن تنفض عنها كل ما يتعلق به، فلم يحرّك ظهوره في حياتها مشاعرها التي اغتيلت على يده حين تخلّى عنها وتركها وحيدة تحت رحمة رجال الشرطة، ولم يشفع له ظهوره المفاجئ في حياتها ومحاولته ترقيع الجرح الذي لم يلتئم.

في النهاية، اختار طريقه الذي كان يتقاطع تماما مع طريقها، لا يهم إن كان مخيّرا أم مسيّرا!

اقتحم زوجها الغرفة مهلّلا، يحمل مذياع ترانزستور صغيرا: افتتحوا إذاعة، اسمعي، الإذاعة التي كانت توجه نداءات وتوجيهات فقط تحوّلت إلى إذاعة حقيقية وطنية تبثّ الأخبار.

ـ ما زالت تحمل اسم "التحالف"!

- ما الضير في ذلك؟ سيرحلون آجلا أم عاجلا! ستلد من رحم هذا البلد حكومة وطنية.

ـ لا تُصدّقْ إلّا ما تراه.

- ما بكِ؟ لمَ كل هذا التشاؤم! يجب أن نثقي بالقادم. انتهى ذاك الزمن. هذه القوات جاءت لتحريرنا. انتهى زمن الظلم والدكتاتورية...

ـ لا فرْق، تُحرّرنا أم تستعبدنا، لن يُحْدث ذلك فرقا طالما أننا لم نتولّ ذلك بأنفسنا!

رسالة أخيرة

"حين تصلك رسالتي هذه، أكون قد ابتعدت تماما، في مكان آخر، لست متأكّدا منه حتى الآن، ربما أكون غادرت الحياة إلى الأبد وربما أكون محظوظا لأعبر الحدود إلى مكان أبعد من أن تطالني فيه أيدي السلطة أو المنتقمين منها. كنت أتمنى لو رافقتني في رحلتي، وتمنّيت أكثر لو استطعت وداعك، لكني أعيش على شفا الموت وأنتظر تكبيل يديّ بين دقيقة وأخرى، بعد أن خنتهم من أجلك. لا أريد أن أحمّلك ذنب ما سيحصل لي، على العكس تماما، فلولاك ما استعدت نفسي بعد أن استهلكتها طويلا في خيانة من حولي.

أعترف لك بأنني كنت أحد العقول المدبرة في مشروع البرمجة، ما كان منه حقيقيّا هو زرع نظام مراقبة دقيق في كل دار، وما كان وهماً هو الخوف الذي زُرع في عقولكم أيضا من خلال نسخ بلاستيكية مشفّرة مزودة بكاميرات وأجهزة تنصّت تخلعونها وترتدونها بانتظام، وفق جدولة الوقت أو البرمجة، وفي الساعات المحدّدة.

الخوف هو من يصنع الطغاة، خوفكم من أن تفقدوا رؤوسكم التي ما غادرتكم يوما، أعلم بأنك كنت تعرفين الحقيقة، أو على الأقل بعضا منها، لذا كان يجب عليّ أن أحميك منهم، لأنك واحدة من قلائل ممن احتفظوا بذاكرة حيّة بينما محا الخوف ذاكرة الإنسان، ذاكرة الحب، وذاكرة الوطن، فلا تسمحي للخوف أن يتسلّل إلى قلوب أولادك.

لا أملك وقتا كافيا لأشرح لك أكثر، فأنا أيضا كنت خائفا حين رضيت العمل على هذا المشروع، صدّقت أو رضيت أن أصدّق بأن الهدف من نظام البرمجة هو صناعة السلام على طريقة السلطة، كان سلاما ملغوما شأنه شأن

السلام الذي يصنعه الأمريكان الآن، ملغوم أيضا، كل ما أرجوه هو أن تنتهي هذه المرحلة، ويكون لكم موعد مع السلام الحقيقي قد حان، وأن تهبّ رياح التغيير الحقيقي الذي لطالما انتظرناه طويلا".

شكرت "سلام" في سرّها لأنه لم يقل أكثر مما قاله، فهي، في وقت ما، أدركت بعضه، لكنّ خيطاً بين الوهم والحقيقة أربكها فخشيت أن تقطعه باليقين.

بعدما يقارب السنة على اختفائه، لم تكن تتوقّع أن تطرق بابها أمه صباح اليوم لتسلّمها هذه الرسالة، دون أن تذكر شيئا حوله. لم تخبرها إذا كان حيّا أم ميّتا، بدورها لم تفكّر بسؤالها هذا حين باغتتْها بالرسالة التي لم تكن تنتظرها يوما.

طوت الرسالة دون اهتمام وألقتها في سلة المهملات القريبة من سريرها، تأفّفت، نهضت، لتلتقطها ثانية، مزّقتها قطعا صغيرة، دسّتها ثانية في قعر السلة...

فما جدوى الاحتفاظ برسالة منه؟!

ليست بحاجة إلى اعتذار أو تبرير أو توضيح بعد أن تساوت الأشياء في نظرها، فما شهدته خلال هذه السنة من رياح التغيير كان كافيا لخلخلة كل الموازين، وحده الألم أسفل بطنها بات يهدّد حياتها التي لم يتبقّ منها الكثير.

نظرت إلى علب الأدوية المتراصة على المنضدة قرب سريرها، بحركة واحدة من يدها دفعت بها جميعا لتتناثر، بعضها وجد طريقه إلى سلة المهملات، بينما تساقط البعض الآخر على أرضية الغرفة، فرسالة "سلام" لم تكن سوى إشارة لها بأن تواجه مصيرها دون خوف.

ألقت برأسها على وسادتها، فتناهت إليها أصوات ضحكات البرتقالة وارتطام الكرة بالحائط وصراخ ابنتها الكبرى، وهي تنهر إخوتها، يخالطها صوت التلفاز الحديث الذي لا يتوقّف عن بثّ سيل الأخبار، ليل نهار، إذ أدمن الجميع سماعها لأنها تحمل متغيّرا كل يوم، بل كل ساعة أحيانا، حيث تتصاعد وتيرتها وتنخفض تبعا

لحنجرة المذيع أو المذيعة، وحسب خطورة المواقف، كذلك يتخللها شريط أحمر أسفل الشاشة، في أغلب الأحيان، يحصي عدد الجثث هنا وهناك.

ضغطت رأسها بكلتا يديها، أغلقت أذنيها، لتمنع تسرب الأصوات، همّت بالنهوض لإغلاق باب الغرفة علّها تحظى بشيء من الهدوء، نهضت، ترنّحت، وقبل أن تصل الباب، ساد الصمت فجأة! اختفت ضحكات البرتقالة، تدحرجت الكرة بهدوء لتنهي رحلتها بالصمت أيضا بعد أن كفّت قدما ابنها عن الحركة، اختنق صراخ البنت الكبرى بغرغرة غير مفهومة، وحده صوت المذيع ظل يلعلع وهو يمضغ أخبار الموت. رفعت رأسها نحو السقف، كانت أذرع المروحة تترنح ببطء توشك على التوقف، مدّت يدها لتستند إلى المنضدة القريبة، فلم تجدها في مكانها. لم تعد ترى الأشياء، شعرت بدوار في رأسها وغامت الرؤيا، رفعت يدا لتسند الرأس، ندّت عنها صرخة متقطعة، لم... يكن... رأسها... في... مكانه!

بما تبقّى لها من ذاكرة، أدركت أن رياح التغيير أطاحت برؤوسهم من جديد...!

من الذي أعاد العمل بنظام... الـ... بـ.... ر... مـ.... جـ.... ة؟!

eKutub
Publish of publishers
Established in February 2011
First Arabic Partner to Google Books
No. 1 publisher in the Arab World
Public email: ekutub. info@gmail. com
Organisation email : editor@ekutub. net
Websites : https://www. e-kutub. com
https://www. ekutub. net
Germany Office: 22 Ladenstraße
Bruchweiler، 55758
Rhineland-Palatinate
Tel: (0049)(0)15906684344
(0044)(0)7941146080

Citizen 247

BY: Bushra Al-Helali

بشرى الهلالي، كاتبة وأكاديمية عراقية. حاصلة على الماجستير في الأدب الإنكليزي من الجامعة المستنصرية في بغداد، وعملت في تدريس الأدب الإنكليزي - المسرح والرواية - في عدد من الجامعات العراقية.

بدأت مسيرتها الصحفية عام 2004، حيث نشرت مقالات عديدة في الصحف المحلية والعربية والمواقع الإلكترونية، كما تولّت مسؤوليات التحرير والإدارة في مؤسسات صحفية مختلفة.

قدّمت أعمالاً درامية أبرزها :(كبرياء وهوى) - 1998، (وداعاً أيها الحب) - 1999، و(أوركسترا)- 2007. كما كتبت مسرحيتين هما : (ترافك لايت)-2018، و(أخيرا)- 2019.

صدر لها أربعة كتب :(لن تشفى مني) مجموعة شعرية – 2017

(إشارة حمراء) مجموعة مقالات – 2020

(المواطنة 247) رواية – 2023

(توقيت آخر للحياة) رواية- 2026

eKutub
9 781780 588490
ألوف الكتب، لكل وقت، ومن أي مكان